كامل كيلانى

قصص عربيّة

حىّ بن يقظان

الطبعة الرابعة عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

(١)

أيها الصبيُّ العزيز :

حديثى إليك — فى هٰذه المقدمة — حديث طويل . ولا غرابة فى ذٰلك ، فقد كان ترددى طويلاً فى تسمية هٰذه المجموعة الجديدة . وكانت حَيرتى (دهشتى) جد شديدة ، حين هممت بإظهار هٰذه القصـــة الأولى . ثم انتهى بى التردد إلى الإحجام (الكف والرجوع) ؛ ثم انقلب الإحجام والتردد والتسويف (التأخير) إقداماً ، وعزماً ، وإنجازاً . ورجعت من حيث بدأت ، وآثرت أن أختار لها أول عنوان خطر ببالى ، وأطلق عليها أول تسمية مرت بخاطرى ؛ وهى : « قصص عربية » .

ولعل هٰذا العُنوان قد أدهشك . فهو — كما ترى — عنوان غريب ، يسترعى الانتباه ، ويدعو إلى التساؤل والمناقشة . وإنى لأكاد أَلمح ما يدور بخلدك ، ويمر بخاطرك ، من وجوه الاعتراض على هٰذه التسمية .

ألستَ تقول فى نفسك : إن كل القصص التى أنشأتها لك ، أو ترجمتها ، أو قبستها (أخذت أصولها) من اللغات الأوربية : عربية اللغة ؟

ألست ترى أننى قد صُغْتها لك صياغة عربية ، أصيلة فى العُروبة ، لا تشوبها لُكنة ، ولا تخالطها عُجمة ، ولا تفسدها تلك العامية المتفشية أغلب القصص ، التى يحاول أكثر

المنشئين أن يقدموها لك ، فى بيان مضطرب ركيك ضعيف ، وألفاظ سُوقية مستهجنة (مبتدلة معيبة) ، وأسلوب يجمع — إلى ضعف التركيب — تفاهة المعنى ، والتواء التعبير ؟

أليس هٰذا بعض ما يدور بخلدك ، و يجول بخاطرك ؟

فاعلم — علمت الخير والصواب ، وأُلهِمْت الرشد والسداد — أنى مقرك على كل ما رأيته وذهبت إليه ؛ وأننى لم أنشئ لك هذه المكتبة العربية الحافلة ، إلا رغبة فى تحبيب هذه اللغة الكريمة إلى نفسك ، وأننى لم أقف أكثر جهودى ، وأنفس وقتى ، فى سبيل إنشاء هٰذه القصص إلا لأحميك من ذٰلك البيان المشوه المضطرب ، وأجنبك — منذ نشأتك — هٰذا الشر المستطير (الكثير المستفيض) ، الذى طالما غمرنا فى مستهل نشاءتنا ، ولا يزال يغمر الناشئين من بعدنا ، فيقضى على مواهبهم ، فى زمن حداثتهم أو يكاد . ولقد أخذت نفسى بتهذيبك وتثقيفك ، وعُنيت بتأديبك ورياضتك ، و إبعادك عن هٰذا السيل العامى الجارف ؛ حتى إذا كبرتْ سنك : صارت اللغة العربية سليقة لك وطبعاً ، وأصبح البيان العربى عادة فيك وملكةً ، و برئت من تلك العجمة المتفشية بين شباب العصر وفتيانه . ومتى تم لك ذٰلك ، أصبحت جديرًا بتأميلنا (رجائنا) فيك ، ولم تقصر — فى قابل أيامك — عن تمهيد طريق الثقافة والعلم لأبناء عصرك القادم .

(٢)

لعلك تطمع أن أزيد !

لست أشك فى ذٰلك . فإنك لا تزال تنتظر منى جواب سؤالك . ولك الحق

كله ، فإننى لمّا أجب عنه . وإنى — إن شاء الله — مجيبك بما ينقع غلتك (يسكن عطشك) ، ويُرَوِّى ظمأك ، ويُزيل حيرتك .

أراك تسألنى مدهوشاً : « إذا صحّ ما تقوله ، وهو — فيما أرى — صحيح ، فما بالك خصصت هذه المجموعة ، بأنها : عربية ؟ »

وجوابى إليك . أننى لم أطلق عليها هذه التسمية عبثاً . ولم تسقنى المصادفة إليها . وإنما عَمَدت إليها عمدًا ؛ لأن هذه المجموعة عريقة متأصلة — بتفكيرها وخيالها — فى العروبة ، ولأن القصة الأولى منها ، تشرح لوناً مشرقاً من ألوان الفكر العربى الخالص .

وكذلك تشرح القصص الأخرى كثيرًا من مزايا العرب ، وتُشِيد بفضائلهم (تعرف بها) وتُثنى عليها ، وتنوه بما وُهِبوه من الشجاعة والإقدام والبطولة والكرم ، وما إلى ذلك من جلائل الصفات .

(٣)

لعلك أدركت الآن حقيقة ما قصدتُ إليه بهذه التسمية ، وارتضيت هذه الحجج ، واطمأنت نفسك إلى صدقها وصحتها .

أما أنا ، فلن أكتفى بهذا القدر من الحديث ، لأننى لا أحب أن أكتُمَ شيئاً مما يجول بخاطرى ، بل أحرص على أن تكون على بينة (وضوح) من الأمر

لقد أقر رجال التربية والتعليم — على اختلاف أقدارهم ، وتباين ثقافاتهم ،

وتنوع معارفهم — كل ما قدمته لك من ألوان القصص : ولكن طائفة قليلين منهم ، قد استثنوا هذه القصة التى أفتتح بها مجموعتك الجديدة ، وعجبوا أن رأونى معتزماً تقديمها إليك . وحقٌ لهم أن يعجبوا ، فإن فى هذه القصة من عُمق التفكير ، ما لا يلائم مدارك الصبى العادى ، وربما عَجَزَ الشاب والفتى عن إدراك معانيها ، واستيعاب مراميها (استيفاء أغراضها البعيدة) أيضاً .

فكيف أقدمها إليك — أيها القارئ الصغير — وأنت فى أول الدراسة الثانوية ؟

الجواب عن ذلك سهل ميسور ، وإن بدا — أول وهلة (أول شىء تراه) — صعباً معقدًا ، لا سبيل إليه .

(٤)

لست أكتم — أيها الصبى العزيز — أننى عجبت مما أقدمتُ عليه ، كما عجب بعض المربين من كرام المدرسين ، وهممت — مرات عدة — أن أعدل عن هذه الفكرة ، وكدت أنثنى (أرجع) عن تقديم هذه القصة إليك . ولكن رغبتى الشديدة فى تثقيفك ، وحرصى على تزويدك بكل طريف (جديد حسن) من المعارف ، وثقتى بذكائك ، واعتدادى (التفاتى واهتمامى) بدقة فهمك : أبَتْ علىّ إلا أن أقدم هذه القصة إليك .

ولقد حفزنى (دفعنى) إلى الإقدام — بعد الإحجام — ما رأيته من إقبالك

على هٰذه المكتبة — التى أنشأتها لك — إقبال الظامئ العطشان على الماء العذب ، وما شهدته من حسن فهمك وبراعة ملاحظاتك ، التى أدليت لى بها ، من قراءة قصص « شكسبير » حين لخصتها لك ، وأُعْجِبْتَ بخيالها أيّما إعجاب. ولقد ماشيتك فى قصص « جحا » وَ . « قلَتْ شَهْر زادُ » و « جلفر » من بعدها ، فرأيت ما زاد إعجابى بك. ثم أقبلت على قراءة « القَصص الجغرافية » و « القصص العلمية » إقبالا ملأ نفسى ثقة بك ، وأغرانى بتقديم هٰذه القصة إليك ، بعد أن أمنت عليك الزلل (السقوط والتعثر) ، وأملت فيك أصدق تأميل . وسوف تحقِّق ظنى — كما حققته من قبل — وتستوعب هذه القصة — كما عودتنى — فى شوق نادر ، وإقبال عجيب .

(٥)

ولٰكنى أخشى أن تعترض علىّ — بعد قراءة القصة — اعتراضاً ما أظنه يَخْفَى عليك ؛ وقد وجهته إلى نفسى ، قبل أن توجهه أنت إلىّ .

أجل . ما أراك — بعد قراءتها — إلا مسائلاً إياى :

« ما بالك لم تُلحق هٰذه القصة الجيلة بقصصك العلمية ؟ »

• • •

وجوابى إليك : أننى هممت بذلك أيضاً ، ورأيتها أقرب إلى مجموعة « القصص العلمية » منها إلى هٰذه المجموعة الجديدة ، لما حَوَتْه — فى أثنائها —

من ضروب المعرفة ، وفنون الثقافة . ولكننى آثرت (فضلت) — على ذلك كله — أن أسلكها (أضمها) فى عداد هذه المجموعة ، لتكون شاهدًا عدلًا على سُمُوِّ الفكر العربى ، وبراعة الخيال العربى ؛ فإن هذه المجموعة بها أجدر وأولى .

• • •

على أننى أترك لك الخيار فى أن تضمها إلى هذه المجموعة ، أو أن تُلحقها بتلك ؛ فليس يعنينى من أمر ذلك شىء ، ما دمت قد استوعبت — فى ذهنك — كلتا المجموعتين ، وانتفعت بما تحويانه من معارف نافعة ، وأخيلة بارعة .

(٦)

بقى علىَّ أن أجيب عن اعتراض بعض المربين على تقديمى هذه القصة البديعة إليك .

ولعلى أسلفت (قدّمت) الجواب عن هذا الاعتراض الوجيه ، فيما قدمته — من أدلة وبراهين — على صلاحيتك لفهم هذه الدقائق ، بعد أن أثبتَّ جدارتك وكفايتك فى استيعابِ « قصص شكسبير » و « جحا » و « القصص العلمية » و « القصص الجغرافية » ، وما إليها .

ولكننى لن أجتزئ (لن أكتفى) بهذا القدر من التدليل . ولا بأس

علىّ ولا حرج (لا ضير علىّ ولا ضيق) ، إذا انتهزت هٰـذه الفرصة ، فأشرت إشارة موجزة إلى منهجى فى تثقيفك (طريقى فى تعليمك) :

لقد سايرتك (مشَيت معك على قدر خطوتك) فى قصص رياض الأطفال — منذ أول عهدك بالـكتاب — وكررت لك العبـارات ، لأيسر عليك القراءة ، وأبسطها لك تبسيطاً ، وما زلت بك ، حتى أقرأتك أجزاءها كلها ، فى يسر وسهولة .

ثم تدرجت بك إلى الحكايات ، فالقصص الفُكاهية ، فقصص ألف ليلة . ثم ارتقيت بك إلى « القصص الهندية » ، و « قالَتْ شَهْرِ زادُ » ، فقصص « شكسبير » و « جحا » ، فقصة « جلفر » بأجزائها الأربعة . ثم رأيتك تقبل على أساطير العـالم ، والقصص العلمية ، والجغرافية ، ومكتبة الجيب ، وتناقشنى فيها مناقشة دقيقة ، دلت على حسن فهمك ، وموفور ذكائك ؛ كما دلت على نجاح هٰذه الخُطة — التى انتهجتها لك — نجاحاً تجاوز أمنية النفس !

(٧)

وقد عجب كل من رآك ، ودهش كل من حاوَرك (حادثك وراجعك فى الكلام) ، فى محتويات هٰـذه القصص ، وأيقنوا أنك طفل غير عادىّ . ولو أمعنوا الفكر ، لأدركوا سرّ امتيازك ، من غير أن يتخبّطوا (يسيروا على غير هدى) فى فهمه ، ويتلمسوا الأسباب البعيدة ، التى لا تَمُتُّ إليه (لا تقرب) بأى صلة .

وإنى لقاصٌّ — عليك وعليهم — طُرْفة (تحفة) جميلة ، تبين السر فى تقدمك على غيرك من الأطفال الذين تنكّبوا (تجنبوا) طريقك ، ولم ينهجوا نهجك الذى رسمته لك فلم تحِد عنه قِيد أُنمُلة ، أعنى : لم تبعد عنه مقدار رأس الإصبَع :

* * *

حَدث الرواة الصادقون : أن رجلًا ذاعت شهرته فى الآفاق (جهات الأرض) ، وملأ صيته الدنيا ، لأنه أتى عجيبة من العجائب ، حيرت ألباب الناس ، وسحرت عقولهم ، حتى عدّوها معجزة من المعجزات .

أتعرف أى معجزة قام بها هٰذا الرجل ؟

لقد كان يرفع بيديه ثورًا ، ضخم الجثة ، ثم يحمله صاعدًا به سلّمًا عاليًا ، وهابطًا من السلم ؛ دونَ أن يبدو عليه شىء من آثار التعب أو أمارات الجهد .

وقد حار الناس فى تعليل هٰذه القدرة العجيبة ، وذهبت ظنونهم فى تأويلها كل مذهب .

فلما سئل فى ذٰلك ، أجاب سائليه باسمًا :

« لقد تعودت حمل هٰـذا الثور — منذ ولادته — وأخذت نفسى بهٰـذا التمرين ، دون أن أقصر فى أدائه يومًا واحدًا ؛ وظلِلْت أحمل الثور فى كل صباح ؛ صاعدًا به دَرَجَ السلم العالى ، وهابطًا به من حيث أصعَد .

وما زلت أكبر ، ويكبر الثور معى . وكان نموّنا — فى كل يوم —

يزداد زيادة بطيئة مطّردة دائمة ، حتى اكتمل نماؤنا . ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوماً عما كان فى سابقه ، ولم أحس له ثقلاً إلى اليوم ! »

(٨)

لعلك – أيها الصبى العزيز — واجد فى هٰذا المثل البارع ، سرّ تقدمك فى القراءة ، ومصدر نجاحك فى هٰذا الميدان .

فقد كان المنهج الذى أخذت نفسى بتقديمه إليك ، سائرًا على هٰذه الخُطّة . وكان الأسلوب يتدرج بك — يوماً بعد يوم — من غير أن تشعر بانتقال فجائى يسوء أثره فى نفسك .

وما زلت بك حتى أعددتك لفهم هٰذه القصة وأمثالها ؛ بلا مشَقة ولا إعنات (من غير إجهاد لك ، ولا تشديد عليك) .

بدأت البَرْنامَج (الدستور الجامع لثقافتك) بتسليتك . ثم تدرجت — بعد خطوات — فمزجت لك التسلية بالفائدة . وما زلت بك ، حتى أصبحت ترى فى المعارف وحدها متعة وتسلية ، لا يَعْدِلها (لا يساويها) شىء من ضروب المتع ، وأفانين التسلية .

ولقد كنتَ — وما زلت إلى الآن — تقرأ فى هٰذه المكتبة أسلوبى وحده ، حتى ألفته ، وتعودت فهمه بأيسر تأمل ، وأدنى ملاحظة .

فلا عجب إذا حفزنى (دفعنى) هٰـذا النجاح إلى السير بك مرحلة أخرى .

فإنك واجد فى هذه القصة — التى أوجزتها (اختصرتها) لك — مزيجاً من أسلوبى وأسلوب مؤلفها العربى ، الذى قبست لك أكثر عباراته ؛ رغبة فى تمرينك على فهم الأساليب المختلفة الأخرى ، وسألقاك بهذه القصة كاملة فى مكتبة الشباب .

(٩)

وبعد ؛ فقد أطلت حديثى — كما وعدتك فى أول المقدمة — وسألقاك فى مقدمة القصة التالية ، بحديث آخر ، أشرح لك — فى أثنائه — فنوناً من القول ، وألواناً من المعانى ، التى يسُرّك أن تتعرفها . فإنى لا أَمَلُّ حديثك ، ولا أضجر بِجِوارِكَ (لا أضيق بمناقشتك ولا أتبرم) . وما أحسبك إلا كذلك[1] !

كامل كيلانى

---

(١) نثبت فى هذه الطبعة المقدمة التى أثبتناها فى الطبعات السابقة ، ويسرنا أن يعرف القارئ أن هذه القصة الرائعة هى إحدى قصص الأطفال التى ترجمت إلى اللغة الصينية .

تمهيد

١ – جَوارِى « الْوَقْواقِ »

أَيُّها الْقارِئُ الصَّغيرُ :

هَلْ عَرَفْتَ جزائرَ « الْوَقْوَاقِ » ؟ ما أَظُنُّكَ رأَيْتَها ، ولٰكنِّى أَحْسَبُك قد سَمِعْتَ بِها ، وقرأْتَ عنها فى القِصَصِ والأساطيرِ ، أعنى : الْأَحاديثَ الْقَديمَةَ الْخَياليَّةَ الْعَجيبَةَ . ولقد حاوَلْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ هٰذِه الجَزائرَ — كما حاوَلَ غَيْرى مِنَ الْباحِثِينَ أَنْ يَهْتَدُوا إِلى مكانِها — فلَمْ أُوَفَّقْ ، وَلَمْ يُوَفَّقُوا إِلى شىْءٍ من ذٰلكَ . ولا سبيلَ إِلى رُؤْيَةِ هٰذه الجَزائرِ ، لأَنَّها — فى الْحَقِّ — جَزائرُ خَياليَّةٌ ، لا وُجُودَ لَها فى عالَمَ الْوُجُودِ ، ولَيْسَ لَها مَكانٌ فى هٰذِهِ الدُّنْيا الَّتى نَعيشُ فيها ، وإِنْ كانَ لَهَا أَرْحَبُ مكانٍ فى عالَمِ الأساطيرِ ، ودُنْيا الْخَيالِ !

ولَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ أَسْلافِنا الأقْدَمِينَ : أَنَّ جَزائرَ « الْوَقْواقِ »

واقِعَةٌ تَحْتَ خَطِّ الاِسْتِواءِ ، وأَنَّ فيها جَزِيرَةً يُولَدُ بها الإنسانُ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ ولا أَبٍ !

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ فقالَ بِغَيْرِ تَحْقِيقٍ : « إنَّ إحْدى جزائِرِ « الْوَقواقِ » تُنْبِتُ شَجَرًا عَجِيبًا ، لا يُثْمِرُ الفواكِهَ وما إليهـا من ضُرُوبِ الثَّمَرِ ، كما تُثْمِرُ الأشجارُ الأُخَرُ ، بَلْ يُثْمِرُ النِّساءَ وَحْدَهُنَّ . »

وقد أَطلقوا عَلَى هؤلاءِ النِّسْوَةِ — اللَّائى يُولَدْنَ مِنْ تلك الأشجارِ — اسْمَ : حَوارِى « الْوَقْواقِ » .

وقد زَعَمُوا : أَنَّ جَزِيرَةً أُخْرَى — مِنْ هٰذِهِ الْجَزائِرِ — تُنْبِتُ أَشْجارُها الرِّجالَ دُونَ النِّساءِ !

٢ — رَأْىُ البـــاحِثِين

وَكَذٰلِكَ زَعَمُوا : أَنَّ فى إحْدَى هٰذهِ الْجَزائِرِ الْعَجِيبَةِ ، وُلِدَ بَطَلُ هٰذهِ الْقِصَّةِ ، مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، وَلا أُمٍّ .

هٰـكَذا يَقُولُ بَعْضُ الْقَصَّاصِينَ . ولٰـكِنَّ جَمْهَرَةً (جماعَةً) مِنَ الْعُلَماءِ الباحثِينَ ، لم يَأْخُذُوا بِهٰذِهِ الْمَزاعِمِ (الأباطِيل) ، ولَمْ يُصَدِّقُوا تِلْكَ الدَّعاوَى

(الأَقوالَ الَّتي لَمْ تَثبُتْ صِحَّتُها) . وَقَدْ بَحَثُوا — جاهِدِينَ — حَتَّى عَرَفوا حقيقةَ القِصَّةِ ، وأَصْلَ بَطَلِها ، ومَنْشأَهُ . واهْتَدَوْا إلى كثيرٍ مِنَ التَّفاصِيلِ الْمُعْجِبَةِ الَّتي أنارَتِ السَّبيلَ إلى فَهْمِ دقائقِها وأَسْرارِها .

وإنِّي لَقاصُّها عَلَيكَ في الفُصُولِ التَّالِيَةِ :

الفصل الأول

١ – مَوْلِدُ « أبْنِ يَقظان »

كانَ – مِنْ بَيْنِ جَزائِرِ الْهِنْدِ – جَزيرَةٌ عَظِيمَةٌ ، مُتَّسِعَةُ الأَكْنافِ (فَسِيحَةُ الْجَوانِبِ) ، بَعِيدةُ الْأَرْجاءِ (النَّواحِي) ، كَثِيرَةُ الفوائِدِ ، عامِرَةٌ بالنَّاسِ ؛ يَمْلِكُها رَجُلٌ مِنْهُمْ ، شَدِيدُ الأَنَفَةِ (التَّرَفُّعِ والْغَيْرَةِ) . وَكانَتْ لَهُ أُخْتٌ ، ذاتُ جَمالٍ نادِرٍ ، وَحُسْنٍ باهِرٍ . وَكانَ أَخُوها مُتَكَبِّرًا مَزْهُوًّا (فَخُورًا مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ) ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُزَوِّجَها بِأَحَدٍ مِنَ الرِّجالِ ، لِأَنَّه – فِيما يَرَى – لا يَجِدُ كُفْئًا لِمُصاهَرَتِهِ ، أَعْنِي : لِمَنْ يُصْبِحُ لَهُ صِهْرًا (زَوْجًا لِأُخْتِهِ) .

• • •

وَكانَ لِهٰذِهِ الْفَتاةِ قَرِيبٌ ، اسْمُهُ : « يَقْظانُ » ؛ وَهُوَ كَرِيمُ النَّفْسِ ، طَيِّبُ الْخِلالِ (الأَخْلاقِ) . فَلَمَّا غابَ الْمَلِكُ فِى بَعْضِ حُرُوبِهِ ، وَطالَتْ غَيْبَتُهُ ، حَسِبَهُ أَهْلُهُ قَدْ ماتَ ، أَوْ قُتِلَ فِى تِلْكَ

الْحُرُوبِ ، فَزَوَّجُوا « يَقْظَانَ » تِلْكَ الْفَتاةَ سِرًّا . وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ ، حَمَلَتْ مِنْهُ ، ثُمَّ وَضَعَتْ طِفْلًا تَلُوحُ عَلَيْهِ مَخايِلُ الذَّكاءِ (أَماراتُهُ) ، وَدَلائِلُ النُّبْلِ . وما وَضَعَتِ الْفَتاةُ طِفْلَهـا ، حَتَّى عادَ أَخُوها مِنْ حُرُوبِهِ مُنْتَصِرًا . وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْ أَقارِبِ الْمَلِكِ عَلَى الْإِفْضاءِ إِلَيْهِ (إِعْلامِهِ وَإِخْبارِهِ) بِسِرِّ الزَّواجِ الَّذى تَمَّ فِي غَيْبَتِهِ ، خَوْفًا مِنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، وانْتِقامِهِ مِنْهُمْ .

وَخَشِيَتِ الْفَتاةُ أَنْ يَذِيعَ سِرُّها ، فَيَقْتُلَهـا أَخُوها . ولَمْ تَرَ بُدًّا (لَمْ تَجِدْ سَعَةً ولا مَفَرًّا) مِنْ كِتْمانِ أَمْرِها عَنْهُ .

وَبَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ ، قَرَّ قَرارُها عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْوَرْطَةِ : بِإِقْصاءِ الطِّفْلِ التَّاعِسِ (السَّاقِطِ الحَظِّ) الْمِسْكِينِ عَنِ الْجَزِيرَةِ ، حَتَّى لا تَسُوءَ الْعُقْبَى (النَّتِيجَةُ والْخاتِمَةُ) .

٢ — فى التَّابُوتِ

ثُمَّ وَضَعَتِ الْأُمُّ طِفْلَهـا — بَعْدَ أَنْ أَرْوَتْهُ مِنَ الرَّضاعِ — فى تابُوتٍ (صُنْدُوقٍ) أَحْكَمَتْ إِغْلاقَهُ (إِقْفالَه) وخَرَجَتْ بِهِ سِرًّا

إلَى ساحِلِ الْبَحْرِ ، وقَلْبُها يَكادُ يَحْتَرِقُ صَبابَةً (حُبًّا وَشَوْقًا) إلَيْهِ ، وَحُزْنًا عَلَيْهِ . ثُمَّ وَدَّعَتْهُ قائِلَةً :

« اللَّهُمَّ : إنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ هٰذا الطِّفْلَ — ولَمْ يَكُنْ شيْئًا مَذْكُورًا — ورزَقْتَهُ فِي ظُلُماتِ أَحْشائِي ، وحَفِظْتَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وتَكَفَّلْتَ بِهِ حَتَّى تَمَّ واسْتَوَى . وأَنا قَدْ أَسْلَمْتُهُ إِلَى لُطْفِكَ ، وَرَجَوْتُ لَهُ فَضْلَكَ . وَسَأُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (الْبَحْرِ) خَوْفًا مِنْ هٰذا الْمَلِكِ الظَّالِمِ الْغَشُومِ (الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ) . فَكُنْ لَهُ ، وَلا تُسْلِمْهُ إِلَى مَنْ لا يَرْحَمُهُ ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! »

* * *

ثُمَّ قَذَفَتْ بِهِ فِى الْيَمِّ ، فصَادَفَ ذٰلِكَ جَرْىَ الْماءِ ، بِقُوَّةِ الْمَدِّ . فاحْتَمَلَهُ — مِنْ لَيْلَتِهِ — إِلَى ساحِلِ جَزِيرَةِ « الْوَقْوَاقِ » الَّتِى تُحَدِّثُنا بِها الْأَساطِيرُ . وكانَ الْمَدُّ يَنْتَهِي — عادَةً — إِلَى أقصاهُ (غايَتِهِ وَنِهايَتِهِ) فِي بَرِّ هٰذِهِ الجَزِيرَةِ ، وَلا يَصِلُ إلى هٰذا الْمَكانِ إِلَّا مَرَّةً فِي كلِّ عامٍ .

* * *

فَأَدْخَلَهُ الْماءُ — بِقُوَّتِهِ — إِلَى أَجَمَةٍ (غابَةٍ) مُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ ، طَيِّبَةِ التُّرْبَةِ (الأَرْضِ) ، مَسْتورَةٍ عَنِ الرِّياحِ وَالْمَطَرِ ، مَحْجُوبَةٍ عَنِ الشَّمْسِ ،



تَنْحَرِفُ عَنْها إذا طَلَعَتْ ، وتَميلُ إذا غَرَبَتْ .

ثُمَّ أَخَذَ الْماء فى النَّقْصِ والْجَزْرِ (الِانْقِطاعِ) عَنِ التَّابُوتِ — الَّذِى فِيهِ الطِّفْلُ — وَبَقِىَ التَّابُوتُ فِى ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ .

• • •

وَتَوالَى هُبوبُ الرِّياحِ ، فَتَجَمَّعَتِ الرِّمالُ ، وَعَلَتْ وَتَرَاكَمَتْ (تَكاثَرَتْ) ، حَتَّى سَدَّتْ بابَ الْأَجَمَةِ عَلَى التَّابُوتِ ، وَرَدَمَتْ مَدْخَلَ الْماءِ إلى تِلْكَ الْأَجَمَةِ ؛ فَكانَ الْمَدُّ لا يَنْتَهى (لا يَصِلُ ، وَلا يَجىءُ) إلَيْها بَعْدَ ذٰلِكَ .

٣ — مُرْضِعَةُ الطِّفل

وَكانَتْ مَساميرُ التَّابُوتِ قَدْ قُلِعَتْ ، وَأَلْواحُهُ قَدِ اضْطَرَبَتْ ، حِينَ قَذَفَهُ الْمَوْجُ ، وَرَماهُ فى تِلْكَ الْأَجَمَةِ .

• • •

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْجُوعُ بِذٰلِكَ الطِّفْلِ بَكَى واسْتَغاثَ ، وَعالَجَ الْحَرَكَةَ (حاوَلَها) . فَوَقَعَ صَوْتُهُ فى أُذُنِ ظَبْيَةٍ فَقَدَتْ وَلَدًا لَها . وَكانَ قَدْ خَرَجَ مِنْ كِناسِهِ (بَيْتِهِ الذى يَسْتُرُهُ) فَرَأَتْهُ عُقابٌ ، فَحَمَلَتْهُ وَطارَتْ بِهِ مِنْ فَوْرِها .

(والْعُقابُ ، طائِرٌ مُفْتَرِسٌ ، قَوِيُّ الْمَخالِبِ ، مُلْتَوِى الْمِنْقارِ).

فَخَرَجَتِ الظَّبْيَةُ تَبْحَثُ عَنْ وَلَدِها . فَلَمَّا سَمِعَتْ صُراخَ الطِّفْلِ ظَنَّتْهُ وَلَدَها الْمَفْقُودَ . فَتَتَبَّعَتِ الصَّوْتَ ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى التَّابُوتِ . فَفَحَصَتْ



(بَحَثَتْ وَحَفَرَت) عَنْهُ بِأَظْلافِها ؛ أَعْنِي : بِحَوافِرِها ، وهِيَ الْأَجْزاءُ الصُّلْبَةُ الَّتِي تَمْشِي عَلَيْها وَتَنْتَهِي بِها قَوائِمُها (أَقْدامُها) .

وَكانَ الطِّفْلُ يَئِنُّ مِنْ داخِلِهِ — حِينَئِذٍ — حَتَّى طارَ عَنِ التَّابُوتِ لَوْحُهُ الْأَعْلَى .

فرَقَّتْ « أُمُّ عَزَّةَ » له ، وعَطفَتْ عَلَيْهِ ، وأَلْقَمَتْهُ حَلَمَتَها ، وأَرْوَتْهُ لَبَنًا سائِغًا . وما زَالَتْ بِهِ تَتَعَهَّدُهُ (تُرَبِّيهِ) ، وتَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى ، مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

وكانَتْ هٰذِهِ الظَّبْيَةُ — الَّتِي تَكَفَّلَتْ بِهِ — قَدْ وافَقَتْ مَكانًا خِصْبًا ومَرْعًى أَثِيثًا (كَثِيرَ النَّباتِ) ؛ فَكَثُرَ لَحْمُها ، وَدَرَّ لَبَنُها (سالَ وَكَثُرَ) ، حَتَّى قامَ بِغِذاءِ الطِّفْلِ أَحْسَنَ قِيامٍ .

وكانَتْ « أُمُّ عَزَّةَ » تَظَلُّ بِجِوارِهِ ، لا تَبْعُدُ عَنْهُ إِلَّا لِضَرُورَةِ الرَّعْيِ .

٤ — بَعْدَ حَوْلَيْنِ

وأَلِفَ الطِّفْلُ « أُمَّ عَزَّةَ » ، حَتَّى أَصْبَحَ لا يَسْتَطِيعُ فِراقَها ؛ فَكُلَّما أَبْطَأَتْ عنْهُ يَشْتَدُّ بُكاؤُهُ ، فَتَطِيرُ إِلَيْهِ الظَّبْيَةُ الحَنُونُ .

° ° °

ولَمْ يَكُنْ — بِالْجَزِيرَةِ — أَحَدٌ مِنَ السِّباعِ الْعادِيَةِ (الْمُفْتَرِسَةِ) .

فَتَرَبَّى الطِّفْلُ ونما ، واغْتَذَى بِلَبَنِ الظَّبْيَةِ ، إلَى أنْ تَمَّ لَهُ حَوْلانِ (عامانِ) .

وتَدَرَّجَ الطِّفْلُ فى الْمَشْيِ ، وأَثْغَرَ (نَبَتَتْ أسْنانُهُ) . فَكانَ يَتْبَعُ الظَّبْيَةَ . وكانتْ هِيَ تَرْفُقُ بِهِ وتَرْحَمُهُ ، وَتَحْمِلُهُ إلَى مَواضِعَ فِيها شَجرٌ مُثْمِرٌ . فَكانتْ تطْعِمُهُ ما تَساقَطَ مِنْ ثَمَراتِها الْحُلْوَةِ النَّضِيجَةِ (الَّتِى طابَتْ) .

وَما كانَ مِنْها صُلْبَ الْقِشْرِ ، كَسَرَتْهُ لَهُ بِطَواحِنِها (أَضْراسِها) .

وَمَتَى عادَ الطِّفْلُ إلَى اللَّبَنِ أَرْوَتْهُ . وَمَتَى ظَمِئَ إلَى الْماءِ أَوْرَدَتْهُ (سَقَتْهُ) . وَمَتَى ضَحِيَ (أَصابَتْهُ الشَّمْسُ) ظَلَّلَتْهُ . وَمَتَى بَرَدَ أَدْفَأَتْه . فَإذا جَنَّ اللَّيْلُ (أَظْلَمَ) صَرَفَتْهُ إلَى مكانِهِ الْأَوَّلِ ، وَجَلَّلَتْهُ (سَتَرَتْهُ) بِنَفْسِها ، وغَطَّتْهُ برِيشٍ كانَ مَمْلُوءًا بِهِ التَّابُوتُ الَّذِى وَضَعَتْهُ فِيهِ أُمُّهُ .

• • •

وكانا — فِى غُدُوِّهِما وَرَواحِهِما (فى خُرُوجِهِما صَباحاً وَعوْدَتِهِما مَساءً) — قَدْ أَلِفَهما رَبْرَبٌ .

• • •

أَتَعْرِفُ الرَّبْرَبَ أَيُّها الْقارِئُ الصَّغِيرُ ؟ ما أَظُنُّكَ تَعْرِفُهُ ، لِأَنَّ هٰذِهِ

الـكلِمَةَ — فِيما أَعْلَمُ — جَدِيدَةٌ ، لَمْ يَأْلَفْها سَمْعُكَ .

فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الرَّبْرَبَ هُوَ : جَماعَةٌ مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ .

* * *

وَقَدْ أَلِفَتْ هٰذِهِ الْجَماعَةُ الظَّبْيَةَ والطِّفْلَ ، فكانَتْ تَسْرَحُ مَعَهُما ، وتَبِيتُ حَيْثُ مَبِيتُهُما .

* * *

فَما زالَ الطِّفْلُ مَعَ الظَّبْيَةِ عَلَى تِلْكَ الحالِ : يَحْكِي نَغَمَتَها بِصَوْتِهِ — حَتَّى لا يُوجَدَ بَيْنَهُما فَرْقٌ — ويُقَلِّدُ نَغَماتِ ذٰلِكَ الرَّبْرَبِ الَّذِي أَلِفَهُ وَحَنا عَلَيْهِ بِطَبْعِهِ .

وكانَ — كَذٰلِكَ — يَحْكِي جَمِيعَ ما يَسْمَعُه مِنْ أَصْواتِ الطَّيْرِ وأَنْواعِ سائِرِ الْحَيَوانِ : مُحاكاتَهُ لِصَوْتِ الظَّبْيَةِ ، في الِاسْتِصْراخِ (صَوْتِ الاسْتِغاثَةِ) ، والِاسْتِئْلافِ (التَّحَبُّبِ وَالتَّوَدُّدِ) ، والِاسْتِدْعاءِ (النِّداءِ والصِّياحِ) ، والِاسْتِدْفاعِ (طَلَبِ النُّصْرَةِ) : إِذْ لِلْحَيَواناتِ — في هٰذِهِ الأَحْوالِ الْمُخْتَلِفَةِ — أَصْواتٌ مُخْتَلِفَةٌ .

فَأَلِفَتْهُ الْوُحُوشُ وَأَلِفَها ، وَلَمْ تُنْكِرْهُ وَلا أَنْكَرَها !

• • •

وَقَدْ مُثِّلَتْ فى خَلَدِه (صُوِّرَتْ فى خاطِرِهِ) ، صُوَرُ هٰذِهِ الحَيَوانات ، وَثَبَتَتْ فى نَفْسِهِ أَمْثِلَةُ ما يَراهُ مِنَ الأَشْياءِ ، فَكانَ يَتَخَيَّلُها ، بَعْدَ مَغيبِها عَنْ مُشاهَدَتِهِ . وكانَ يَحْدُثُ لَهُ شَوْقٌ إلى رُؤْيَةِ بَعْضِها ، وكَراهِيَةٌ لِبَعْضِها .

٥ — قُوَّةُ الحيوانِ وضَعْفُ الإنسانِ

وكانَ — فى ذٰلِكَ كُلِّهِ — يَنْظُرُ إلى جَميعِ الْحَيَواناتِ ، فَيَراها كاسِيَةً بالْأَوْبارِ (مَكْسُوَّةً بِالْأَصْوافِ) ، والْأَشْعارِ ، وأنواعِ الرِّيشِ عَلَى اخْتِلافِ أَلْوانِها ، وتَبايُنِ أَجْناسِها ، وتَنَوُّعِ أَشْكالِها .

وكانَ يَرَى ما لَها مِن سُرْعَةِ العَدْوِ (الْجَرْيِ) ، وَقُوَّةِ البَطْشِ والْفَتْكِ ، وما لَها من الأَسْلِحَةِ الْمُعَدَّةِ لِمُدافَعَةِ من يُنازِعُها ، مِثْلَ الْأَنْيابِ ، والْحَوافِرِ ، والصَّياصِي (قُرونِ الظِّباءِ) ، والْمَخالِبِ (أَظْفارِ الْحَيَوانِ والطَّيْرِ) .

ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى نَفْسِهِ ، فيَرَى ما بِهِ — من العُرْيِ ، وَعَدَمِ السِّلاحِ ، وضَعْفِ الْعَدْوِ ، وقِلَّةِ البَطْشِ — عِنْدَما كانتْ تُنازِعُهُ الوُحُوشُ أَكْلَ الثَّمَراتِ ، وتَسْتَبِدُّ (تَسْتَأْثِرُ) بِها دُونَهُ ، وتَتَغَلَّبُ عليْهِ ، فَلا يستَطيعُ الْمُدافَعَةَ

عَنْ نَفسهِ ، ولا الفِرارَ بِشَىء مِنَ الثِّمارِ !

• • •

وكانَ يَرَى أَتْرابَهُ (من وُلِدَ مَعَهُ) — يَعْنِي : أَشْباهَهُ فِي السِّنِّ — من أولادِ الظِّباء ، قد نَبَتَتْ لها قُرُونٌ بعدَ أنْ لَمْ تَكُنْ ؛ وصارَتْ قَوِيَّةً بعدَ ضَعْفها فى العَدْوِ . ولا يرى لنفسِهِ شيئاً من هٰذا كُلِّهِ .

فكانَ يُفكِّرُ فى ذٰلِكَ ، ولا يَدْرِى ما سَبَبُهُ ؟

• • •

وكان أيضاً يَنْظُرُ إلى سائرِ الحَيوانِ ، فيراها مَسْتُورةً بِالأَذْنابِ ، مَكْسُوَّةً بالأَوْبارِ — أو ما شابهها — فكان ذٰلك كُلُّهُ يَكْرُبُهُ (يَسُوءُهُ وَيَحْزُنُهُ) .

٦ — فى العامِ السّابعِ

فلمّاً طالَ هَمُّهُ فى ذٰلكَ كلِّهِ — وقدْ قارَبَ سَبْعَةَ أَعْوامٍ — وَيَئِسَ مِنْ أنْ يَكْمُلَ لَهُ ما قَدْ أَضَرَّ بِهِ مِنَ النَّقْصِ : اتَّخَذَ مِن أَوْراقِ الشَّجرِ العَرِيضَةِ شَيْئاً جَعلَ بَعضَهُ خَلْفَهُ ، وَبَعْضَهُ قُدَّامَهُ . وَعَمِلَ — مِنَ الخُوصِ والحَلفاءِ

(نَبْتٍ مُحَدَّدِ الأَطْرافِ) — شِبْهَ حزامٍ عَلَى وَسَطِهِ . فتعلَّقتْ بِهِ تِلكَ الأَوْرَاقُ .

. . .

فَلَمْ يَلْبَثْ إلّا يَسِيرًا ، حَتَّى ذَوَى ذٰلِكَ الْوَرَقُ (ذَبُلَ وَيَبِسَ) ، وَجَفَّ وتَساقَطَ عَنْهُ . فَما زالَ يَتَّخِذُ غَيْرَهُ ، وَيَخْصِفُ (يُلْزِقُ) بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، طاقاتٍ مُضاعَفةً (طَبَقاتٍ ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ) ، ويَخْرُزُ الواحِدَةَ فى الأُخْرَى ، ويُلْزِقُ الأُولى بالثَّانية ، لِيَسْتُرَ بِها بَعْضَ جِسْمِهِ ، ورُبَّما كانَ ذٰلِكَ أَطْوَلَ لِبَقاءِ السِّتْرِ ؛ إلَّا أنَّهُ — عَلَى كلِّ حالٍ — قَصِيرُ الْمُدَّةِ .

. . .

واتَّخَذَ — مِنْ أَغْصانِ الشَّجَرِ — عِصِيًّا سَوَّى أَطْرافَها وعدَّلَ مُتُونَها (ظُهُورَها) ، وقَوَّمَ مِنِ اعْوجاجِها وتَثَنِّيها . وكانَ يَهُشُّ بِها عَلَى الْوُحُوشِ الْمُنازِعَةِ لَهُ ، فَيَحْمِلُ عَلَى الضَّعِيفِ فِيها ، وَيُقاوِمُ الْقَوِىَّ مِنْها . فأَكْسَبَهُ ذٰلِكَ النَّجاحُ ثِقَةً وتأميلًا ، ونَبُلَ (عَظُمَ) بِذٰلِكَ قَدْرُهُ — عِنْدَ نَفْسِهِ — بَعْضَ نَبالَةٍ . وَعلِمَ أنَّ لِيَدِهِ فَضْلًا كَثِيرًا عَلَى أَيْدِى الحَيَوانِ ، إذْ أَمْكَنَ لَهُ بِها سَتْرُ جِسْمِهِ ، واتِّخاذُ الْعِصِىِّ الَّتِى يُدافِعُ بِها عَنْ حَوْزَتِهِ ، ويَحْمِى

بِها نَفْسَهُ وَما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ أَشْيائِهِ ، فاسْتَغْنَى بِها عَمَّا أَرادَهُ مِنَ الذَّنَبِ والسِّلاحِ الطَّبِيعِيِّ .

٧ — الثَّوْبُ الْأَوَّلُ

وَفِي خِلالِ ذٰلِكَ تَرَعْرَعَ ، وَأَرْبَى (زادَ) عَلَى السَّبْعِ سِنِينَ . وطالَ بِهِ الْعَناءِ فِي تَجْدِيدِ الْأَوْراقِ — الَّتِي كانَ يَسْتَتِرُ بها — فَكانَتْ نَفْسُهُ تُنازِعُهُ (تُشَوِّقُهُ) إلى اتِّخاذِ ذَنَبٍ مِنْ أَذْنابِ الْوُحُوشِ الْمَيِّتَةِ ، لِيُعَلِّقَهُ عَلَى نَفْسِهِ .

وَلٰكِنَّ « ابْنَ يَقْظانَ » رأى أَنَّ أَحْياءَ الْوُحُوشِ تَتَحامَى (تَتَجَنَّبُ) مَيِّتَها ، وتَنْفِرُ مِنْهُ . فَلَمْ يَتَأَتَّ (لَمْ يَتَيَسَّرْ) لهُ الْإِقْدامُ عَلَى تَنْفِيذِ رَغْبَتِهِ .

• • •

ثُمَّ صادَفَ — فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ — نَسْرًا مَيِّتًا ؛ فرأى الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِتَحْقِيقِ إِرْبَتِهِ (طِلْبَتِهِ وَحاجَتِهِ) ، إِذْ لَمْ يَرَ لِلْوُحُوشِ عَنْهُ نُفُورًا . فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ ، وَقَطَّعَ جَناحَيْهِ وذَنَبَهُ صِحاحًا (كَما هِيَ) ، وَفَتَحَ رِيشَها وسَوَّاها . وسَلَخَ — عَنْ ذٰلِكَ النَّسْرِ — سائِرَ جِلْدِهِ ، وفَصَّلَهُ عَلَى قِطْعَتَيْنِ ، رَبَطَ إِحْداهُما عَلَى ظَهْرِهِ ، والْأُخْرَى عَلَى سُرَّتِهِ وَما تَحْتَها . وعَلَّقَ الذَّنَبَ مِنْ

خَلْفه ، وعَلَّقَ الجَناحيْنِ عَلَى عَضُدَيْهِ (ما بين مِرْفَقَيْهِ إِلَى كَتِفَيْهِ) .

* * *

فَأَكْسَبَهُ ذٰلِكَ سَتْرًا ، ودِفئاً ، ومهابَةً — فِي نُفُوسِ جَميعِ الوحُوش — حَتَّى كانتْ لا تُنازِعُهُ (لا تُخاصِمُهُ) ولا تُعارِضُهُ . فصارَ لا يَدْنُو إلى شَيْءٍ مِنها



سِوَى « أُمِّ عَزَّةَ » : تِلْكَ الظَّبْيَةِ الَّتِي كانتْ أَرْضَعَتْهُ وَرَبَّتْهُ . فَإِنَّها لَمْ تُفارِقْهُ وَلا فارَقَها ، إلى أَنْ أَسَنَّتْ (كَبِرَتْ سِنُّها) وضَعُفَتْ . فَكانَ يَرْتادُ بِها الْمَرَاعِي الْخِصْبَةَ ، ويَجْتَنِي لَها الثَّمَرَاتِ الْحُلْوَةَ ، ويُطْعِمُها ، ولا يأْلُو جُهْداً (لا يُقَصِّرُ) فِي بِرِّها ، والعِنايةِ بِأَمْرِها ، جزاءً لَهَا عَلَى ما أَسْلَفَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ وإِحْسانٍ .

الفصل الثانى

١ — مَوْتُ الظَّبْيَةِ

وَما زالَ الضَّعْفُ وَالْهُزَالُ يَسْتَوْلِيانِ عَلَى « أُمِّ عَزَّةَ » حَتَّى حانَ حَيْنُها (هَلاكُها وَمَوْتُها) ، وانْتَهَتْ أَيَّامُها مِنَ الدُّنيا ، وَأَدْرَكَها الْمَوْتُ الَّذِى لا يُفْلِتُ مِنْهُ كائِنٌ كانَ .

فَسَكَنَتْ حَرَكاتُها بِالْجُمْلَةِ ، وتَعَطَّلَتْ جَميعُ أَفْعالِها .

• • •

فَلَمَّا رَآها الصَّبِيُّ عَلَى تِلْكَ الحالِ ، جَزِعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَكادَتْ نَفْسُهُ تَفِيضُ (تَذْهَبُ) أَسَفًا عَلَيْها .

فَكانَ يُنادِى « أُمَّ عَزَّةَ » بِالصوْتِ الَّذِى كانَتْ عادَتُها أَنْ تُجِيبَهُ عِنْدَ سَماعِهِ ، وَيَصِيحُ بِأَشَدِّ ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَلا يَرَى لَها — عِنْدَ ذٰلِكَ — حَرَكَةً وَلا تَغَيُّرًا !

• • •

فَكان ينظرُ — إلى ذَنَبِها ، وَإلَى عَيْنَيْها — فَلا يَرَى بِها آفةً بادِيَةً وَلا عِلَّةً ظاهِرَةً .

وكذلِكَ كان يَنْظُرُ إلَى جَمِيعِ أَعْضائِها ، فَلا يرَى — بِشَىْءٍ مِنْها — آفَةً مِنَ الآفاتِ ، أَوْ عِلَّةً مِنَ الْعِلَلِ .

° ° °

فَكانَ يَطْمَعُ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى مَوْضِعِ الآفَةِ (العِلَّةِ) ، وَيَهْتَدِىَ إلى مَكانِ الْعاهَةِ الَّتِى عَرَضَتْ لَها ، فَمَنَعَتْها مِنَ الْحَرَكَةِ .

وَظَلَّ يَبْحَثُ جاهِدًا ، لِيُزِيلَها عَنْها ، وَيُعِيدَ إلَيْها الْحَياةَ ، فَتَرْجِعَ إلَى ما كانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالسَّعْىِ وَالنَّشاطِ .

فَلَمْ يَتَأَتَّ لَهُ شَىْءٌ مِنْ ذٰلِكَ ، وَلا اُسْتَطاعَهُ .

٢ — تأَملاتُ « ابْنِ يَقْظانَ »

وَكانَ الَّذِى أَرْشَدَهُ — إلَى الْبَحْثِ عَنْ هٰذِهِ الآفَةِ — ما كانَ قَدِ اُعْتَبَرَهُ فِى نَفْسِهِ ، وَلَحَظَهُ مِنْ أَمْرِهِ قَبْلَ ذٰلِكَ .

• • •

لِأَنَّهُ كانَ يَرَى أَنَّهُ ، إذا أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، أَوْ حَجَبَهُما (سَتَرَهُما) بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهُ يَعْجِزُ — حِينَئِذٍ — عَنْ رُؤْيَةِ ما يُحِيطُ بِهِ ؛ فَلا يُبْصِرُ شَيْئًا حَتَّى يَزُولَ ذٰلِكَ الْعائِقُ (الْمانِعُ) .

• • •

وَكَذٰلِكَ كانَ يَرَى أَنَّهُ ، إذا أَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ ، وَسَدَّهُما ، لا يَسْمَعُ شَيْئًا ، حَتَّى يُزِيلَ إِصْبَعَيْهِ عَنْهُما .

وَإِذا أَمْسَكَ أَنْفَهُ بِيَدِهِ ، لا يَشَمُّ شَيْئًا مِنَ الرَّوائِحِ حَتَّى يَفْتَحَ أَنْفَهُ ، فَيَزُولَ ذٰلِكَ الْعائِقُ .

• • •

فاعْتَقَدَ — مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ — أَنَّ جَمِيعَ ما لِهٰذِهِ الظَّبْيَةِ الْهامِدَةِ (السَّاكِنَةِ الْمَيِّتَةِ الَّتِي لا حَراكَ بِها) مِنَ الْإِدْراكاتِ وَالْأَفْعالِ ، قَدْ تَكُونُ لَها عَوائِقُ تَعُوقُها ، وَلا تُمَكِّنُها مِنْ مُواصَلَةِ أَعْمالِها . فَإِذا اهْتَدَى إِلى مَصْدَرِ هٰذِهِ الْعَوائِقِ ، وَوُفِّقَ إِلَى إِزالَتِها عَنْها : عادَتِ الظَّبْيَةُ — كَما كانَتْ — قادِرَةً عَلَى السَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنْ ضُرُوبِ الْأَفْعالِ .

٣ - غايَة البَحْثِ

فَلمَّا نَظرَ إلى جَميع أعْضائِها الظَّاهِرَةِ ، وَأطالَ التَّأمُّلَ فِيها ، وَالفَحْصَ (الْبَحْثَ) عَنْها ، لَمْ يرَ فِيها آفَةً ظاهِرَةً .

وَكانَ يَرَى — مَعَ ذٰلِكَ — أَنَّ الْعُطْلَةَ قَدْ شَمِلَتْها ، وَلَمْ يَخْتَصَّ بِها عُضْوٌ دُونَ عُضْوٍ .

وثَمَّةَ (هُناكَ) وَقعَ فِي خَاطِرِهِ أَنَّ الآفَةَ الَّتِي نَزَلَتْ بِهٰذِهِ الظَّبْيَةِ الْبارَّةِ الْحَنُونِ ، إنَّما هِيَ في عُضْوٍ مَسْتُورٍ غائبٍ عَنِ الْعِيان (مَخْفِيٍّ عَنِ الْمُعايَنَةِ والرُّؤْيَةِ بِالْبَصَرِ) ، مُسْتَكِنٍّ (مَحْجُوبٍ مُسْتَتِرٍ) فى باطِنِ الْجَسَد .

• • •

وقالَ « ابْنُ يَقظانَ » فى نَفْسِهِ :

« لَعلَّ تَعْطِيلَ ذٰلِكَ الْعُضْوِ — الْمَسْتُورِ عَنِ الْعِيان — هُوَ مَصْدَرُ هٰذِهِ الآفاتِ ، ومَبْعَثُ هٰـذِهِ الْعِلَلِ . ولَعلَّ ذٰلِكَ الْعُضْوَ — الَّذِى خَفِيَ عَنْ عَيْنَيَّ فَلَمْ أرَهُ — هُوَ أَهَمُّ عُضْوٍ فى جِسْمِ هٰذِهِ الظَّبْيَةِ .

ومَنْ يُدْرِيني ؟ فَلَعَلَّهُ باعِثُ الْحَياةِ فى جِسْمِها . ولَعَلَّهُ — وحْدَهُ — هُوَ الَّذِى يُحَرِّكُ هذِهِ الْأَعْضاء الظّاهِرَةَ كُلَّها . فَلَمَّا نَزَلَتْ بِهِ الآفَةُ، عَمَّتِ الْمَضَرَّةُ (أَصْبَحَ الضَّرَرُ عامًّا) ، وشَمِلَتِ الْعُطْلَةُ ! »

• • •

وطَمِعَ بِأَنَّهُ لَوْ عَثَرَ على ذٰلِكَ الْعُضْوِ ، وأَزالَ عَنْهُ ما نَزَلَ بِهِ ، لاسْتَقامَتْ أَحْوالُهُ ، وفاضَ عَلَى سائِرِ الْبَدَنِ نَفْعُه ، وعادَتِ الأَفْعالُ إِلَى ما كانَتْ عَلَيْهِ .

٤ — أعضاء الْحَيَوانِ

وكانَ قَدْ شاهَدَ قَبْلَ ذٰلِكَ فى الأَشْباحِ (الأَشْخاصِ) الْمَيِّتَةِ — مِن الْوُحُوشِ وَسِواها — أَنَّ جَمِيعَ أَعْضائِها لا تَجْوِيفَ (لا فَراغَ) فيها . فَهِيَ — فيما يَراها — مُصْمَتَةٌ (مُجْتَمِعَة مُمْتَلِئَةٌ)، لا جَوْفَ لها (لَيْسَ فِيها سَعَةٌ وَلا فَراغٌ) ، إِلَّا الفَخِذَ ، والصَّدْرَ والْبَطْنَ .

• • •

فوَقَعَ فى نَفْسِهِ (ثَبَتَ فِيها) أَنَّ العُضْوَ الْخَطِيرَ الشَّأْنِ (الرَّفِيعَ

الْقَدْرِ) ، الْعَظِيمَ الْمَنْزِلَةِ ، الَّذِى يَبْحَثُ عَنْهُ جاهِدًا ، وَيَتَلَمَّسُ الْعُثُورَ عَلَيْهِ ، والَّذِى لهُ تِلْكَ الصِّفَةُ ، وَذٰلِكَ الْخَطَرُ الْعَظِيمِ ، لنْ يَعْدُوَ أَحَدَ هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ الثَّلاثَةِ ، وهِى : الفَخِذُ ، والصَّدْرُ ، والْبَطْنُ .

• • •

وكانَ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ — غَلَبَةً قَوِيَّةً — أَنَّ ذٰلِكَ الْعُضْوَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فى الْمَوْضِعِ الْمُتَوَسِّطِ مِنْ هٰذِهِ الْمَواضِعِ الثَّلاثَةِ .

وَقَدْ دَفَعَتْهُ غَرِيزَتُهُ ، وهدَتْهُ فِطْرَتُهُ (طَبِيعَتُهُ) إِلى ذٰلكَ ، لأَنَّهُ كانَ قدِ اسْتَقَرَّ فى نَفْسِهِ أَنَّ جميعَ أَعْضاءِ الْجِسْمِ لا تَسْتَغْنِى عَنْهُ ، وأَنَّها مُحْتاجَةٌ إِلَيْهِ دائِمًا ؛ لأَنَّهُ يُمِدُّ الْجِسْمَ كُلَّهُ بالْقُوَّةِ والنَّشاطِ ، ويُوَزِّعُ الْحَياةَ عَلَى جَمِيعِ الأَعْضاءِ . ومِنَ الطَّبِيعِىِّ أَنْ يَكُونَ مَسْكَنُهُ فى الْوَسَطِ ، لِيُمِدَّ (يُعْطِىَ ويُعِينَ) كلَّ ما يَتفَرَّعُ مِنْهُ ، بالْحَياةِ والقُوَّةِ .

وكان إِذا رَجَعَ إِلى ذاتِهِ ، شَعَرَ بِدَقَّاتِ هٰذا الْعُضْوِ فى صَدْرِهِ ، وأَحَسَّ أَنَّ لهُ خَطَرًا أَىَّ خطَرٍ (قَدْرًا عَظِيماً جدًّا) .

وقد كانَ ينظُرُ إِلى سائِرِ أَعْضائِهِ (باقِيها) : كالْيَدِ ، والرِّجْلِ ،

والأُذُنِ ، والأَنْفِ ، والعَيْنِ ، والرَّأْسِ ؛ فيَجِدُ أنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى مُفارَقَتِها فى أىِّ وقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ ؛ ويُخَيَّلُ إليهِ أنَّ فى اسْتِطاعَتِهِ أنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْها ، إذا سُلِبَها وانْتُزِعَتْ منهُ ؛ ويَظُنُّ أنَّهُ لا يَفْقِدُ الْحَياةَ بِفِقْدانِها .

فإذا فَكَّرَ فى ذٰلِكَ الشَّىْءِ الَّذِى يَدُقُّ فى صَدْرِهِ تلك الدَّقاتِ الْمُنْتَظِمَةَ الدَّائِمةَ ، أيْقنَ أنَّهُ لا يَتَأَتَّى لَهُ الِاستغناء عَنْهُ طَرْفَةَ عَينٍ (مِقْدارَ حَرَكةِ جَفْنَيْها) .

وكذٰلِكَ كانَ يَرَى — عِنْدَ مُحَارَبَتِهِ الْوُحُوشَ — أنَّ أكْثَرَ ما يَتَّقِيهِ ، وأخْوَفَ ما يَخافُهُ مِنْهُمْ ، هُوَ أنْ يُصِيبُوا صَدْرَهُ بِأَىِّ أذًى لِشُعُورِهِ بِذٰلِكَ الشَّىْءِ الذِى فِيهِ ، وَثِقَتِهِ بِأَنَّهُ باعِثُ الْحَياةِ ، ومَصْدَرُ الْقُوَّةِ .

فَلَمَّا جَزَمَ (بَتَّ وقَطَعَ) الْحُكْمَ بِأَنَّ العُضْوَ الَّذِى نَزَلَتْ بِهِ الآفَةُ إنَّما هُوَ فى صَدْرِ الظَّبْيَةِ ، أجْمَعَ (عَزَمَ) عَلَى التَّنْقيبِ والبَحْثِ عَنْهُ ، لَعَلَّهُ يظفَرُ بِهِ ، ويَرَى آفَتَهُ فيُزِيلَها .

٥ — أملٌ ورَجاء

ثُمَّ إنَّهُ خافَ أنْ يَكُونَ نَفْسُ فِعْلِهِ — هـٰذا — أعْظَمَ مِنْ تِلكَ الآفَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِتِلْكَ الظَّبْيَةِ .

وقالَ فِي نَفْسِهِ :

« شَدَّ ما أخْشَى أن يَنقَلِبَ عَمَلِي مِنَ الْخَيْرِ إلَى الشَّرِّ ، وَأنْ يَكُونَ سَعْيِي لِنَجاةِ الظَّبْيَةِ سَبَبًا فِي الْقَضاءِ عَلَيْها .

وَمَنْ يُدْرِينِي ؟

لَعلَّنِي إذا شَقَقْتُ صَـدْرَها ، أهْلَـكْتُها ، وقَطَعتُ الأَمَلَ فِي حَياتِها ! »

ثُمَّ إنَّهُ تَفَـكَّرَ ، وأطالَ التَّأَمُّلَ ، وأنْعَمَ النَّظَرَ ، وَظَلَّ يُسَائِلُ نَفْسَهُ : هَلْ رَأَى مِنَ الْوُحُوشِ — وسِواها — مَنْ صارَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الحالِ ، ثُمَّ عادَ إلَى مِثْلِ حالِهِ الأُولَى ؟

فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا . وثَمَّةَ أيْقَنَ أنَّهُ إذَا تَرَكَ الظَّبْيَةَ عَلَى تِلْكَ الحالِ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ أمَلٍ فِي عَوْدَةِ الْحَياةِ إلَيْها . وبَقِيَ لَهُ بَعْضُ رَجاءٍ فِي رُجُوعِها

إِلَى الْحَيَاةِ — كَرَّةً أُخْرَى — إِنْ هُوَ وَجَدَ ذٰلِكَ الْعُضْوَ ، وَاهْتَدَى إِلى مَكْمَنِ الدَّاء (مَوْضِعِهِ الْخَفِيِّ) ، وأزال الْآفَةَ عَنْهُ .

٦ — تَشْرِيحُ الظَّبْيَةِ

فَعزَمَ « ابْنُ يَقْظانَ » على تَشْرِيحِ الظَّبْيَةِ وتَقْطِيعِها . وقَرَّ رَأْيُهُ على شَقِّ صَدرِها ، والتَّفْتِيشِ عمَّا فيهِ . ولَمْ يَتَرَدَّدْ فى إِنْفاذِ عَزْمِهِ لَحْظَةً بَعْدَ ذٰلِكَ . فاتَّخَذَ — مِنْ كُسورِ الْأَحْجارِ الصُّلْبَةِ (الْأَجْزاءِ الْمَكْسُورَةِ مِنْها) ، ومِنْ شُقُوقِ الْقَصَبِ الْيابِسَةِ (قِطَعِهِ الْمَشْقُوقَةِ مِنْ أَنابِيبِهِ الْفارِغَةِ الْجَوْف) — أَشْباهَ السَّكاكِينِ ، وشَقَّ بها ما بيْنَ أَضْلاعِ الظَّبْيَةِ ، وقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ أَمَلًا وَرَجاءً بالنَّجاحِ فى سَعْيِهِ .

• • •

فَلمَّا قَطَعَ اللَّحْمَ الَّذِى بيْنَ الْأَضْلاعِ ، وأَفْضَى (وَصَلَ) إِلَى الْحِجابِ الْمُسْتَبْطِنِ لِلْأَضْلاعِ (الْمُتَداخِلِ فِيها كالْبِطانَةِ) ، رآهُ قَوِيًّا .

وَثَمَّةَ قَوِىَ ظَنُّهُ بِأَنَّ مِثْلَ ذٰلِكَ الْحِجابِ الْقَوِىِّ ، لا يَكُونُ إِلَّا لِمِثْلِ ذٰلِكَ الْعُضْوِ الَّذِى يَبْعَثُ الْحَياةَ فى جَمِيعِ أَرْجاءِ الْجِسْمِ ونَواحِيهِ .

وطَمِعَ بِأَنَّهُ — إذا تَجاوَزَهُ — ظَفِرَ بِطِلْبَتِهِ ، وأَدْرَكَ غايَتَهُ الَّتى يَسْعَى إلَيْها .

• • •

فَحاوَلَ شَقَّ هٰذا الْحِجابِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ إلَى ذٰلِكَ سَبيلًا .

وَصَعُبَ (امْتَنَعَ) عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَ إرْبَتَهُ (حاجَتَهُ) ، لِعَدَمِ وُجُودِ الْآلاتِ الَّتى تُمَكِّنُه مِنْ ذٰلِكَ . فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْقَواطِعِ إلَّا الْحِجارَةُ والْقَصَبُ الْيابِسُ ، كما حَدَّثْتُكَ بِذٰلِكَ .

ولٰكِنَّ «ابْنَ يَقْظانَ» آلَى عَلَى نَفْسِهِ (حَلَفَ وَأَقْسَمَ) أَنْ يُدْرِكَ غايَتَهُ ؛ فَلَمْ تُعْوِزْهُ (لَمْ تَنْقُصْهُ) الْحِيلَةُ ، وَبَذَلَ جُهْدَهُ حتى أَجَدَّ تِلْكَ الْقَواطِعَ وَأَحَدَّها (شَحَذَها وَسَنَّها وَسَوَّاها وَصَيَّرَها جَدِيدَةً) .

وَتَلَطَّفَ فِى خَرْقِ ذٰلِكَ الْحِجابِ ، حَتَّى انْخَرَقَ لَهُ ، فَأَفْضَى إلَى الرِّئَةِ .

فَظَنَّ — أَوَّلَ أَمْرِهِ — أَنَّ الرِّئَةَ هِىَ مَطْلُوبُهُ ، وَحَسِبَ أَنَّها غايَتُهُ . وما زالَ يُقَلِّبُها ، ويَطْلُبُ مَوْضِعَ الآفَةِ بِها ، لَعَلَّهُ يُزِيلُها ، أَوْ يَرْفَعُ عَنْها ما أَلَمَّ بِها مِنَ الْعَوائِقِ .

٧ – قَلْبُ الظَّبْيَةِ

وكانَ أوَّلُ ما وَجَدَهُ مِنْهـا نِصْفَها ٱلَّذى هُوَ فِى الْجانِبِ الْواحِدِ ، فَرَآها مائِلَةً إلَى جِهَةٍ واحِدَةٍ . وكانَ قَدِ اعْتَقَدَ أنَّ ذٰلِكَ الْعُضْوَ – الَّذى يَبْحَثُ عَنهُ جاهِدًا – لا يَكُونُ إلَّا فِى الْوَسَطِ فى عُرْضِ الْبَدنِ ، كَما هُوَ فِى الْوَسَطِ فِى طُولِهِ . فَراحَ يُفَتِّشُ فِى وَسَطِ الصَّـــدْرِ ، حتَّى أَلْفَى (وجَدَ) الْقَلْبَ . وَهُوَ مُجَلَّلٌ بِشَغافٍ (مُغَطًّى ومُلَبَّسٌ بِغِلافٍ وَحِجابٍ) فِى غايَةِ الْقُوَّةِ ، مَرْبُوطٌ بِعَـلائِقَ (رَوابِطَ) ، فى غايَةِ الْوَثاقَةِ (الْإحْكامِ) والرِّقَّةِ ، وَهِىَ مُطِيفَةٌ (مُحيطَةٌ) بهِ مِنَ الْجِهَةِ الَّتى بَدَأَ بِالشَّقِّ مِنْها .

• • •

فَقالَ فى نَفْسِهِ :

« إنْ كانَ لِهٰذا الْعُضْوِ – مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى – مِثْلُ ما لَهُ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ ، فَهُوَ فى حَقِيقَةِ الْوَسَطِ لا مَحالَةَ (لا بُدَّ وَلا رَيْبَ) ، وَهُوَ – بِلا شَكٍّ – مَطْلُوبِى وغايَتِى الَّتى أبْحَثُ عَنْها ، لا سِيَّما ما أرَى

لَهُ مِنْ حُسْنِ الوَضْعِ ، وجَمالِ الشَّكْلِ ، وقِلَّةِ التَّشَتُّتِ (قِلَّةِ التَّفَرُّقِ والتَّخَلْخُلِ) ، وَقُوَّةِ اللَّحْمِ .

وهُوَ — إلى ذٰلكَ — مَحْجُوبٌ بِمِثْلِ هٰذا الْحِجَابِ الَّذى لَمْ أرَ مِثْلَهُ لِشَىْءٍ مِنَ الأَعْضاءِ . »

• • •

فَبَحَثَ عَنِ الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الصَّدْرِ ، فوَجَدَ فِيهِ الحِجابَ الْمُتَبَطِّنَ لِلأَضْلاعِ ، ووَجَدَ الرِّئَةَ عَلَى مِثْلِ ما وجَدَهُ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ ؛ فَحَكَمَ بِأَنَّ ذٰلِكَ الْعُضْوَ هُوَ مَطْلُوبُهُ .

فَحاوَلَ هَتْكَ حِجابِهِ ، وشَقَّ شَغافِهِ (تَمْزِيقَ الْغِلافِ السَّاتِرِ لَهُ) لِيَظْهَرَ ما وراءَهُ ، ولٰكِنَّهُ وجَدَ مَطْلَبَهُ عَسِيرًا .

فَلَمْ يُبالِ بالْعَقَباتِ والْمَصاعِبِ ، واسْتَطاعَ تَحْقِيقَ رَغْبَتِهِ ، بَعْدَ كَدٍّ واسْتِكْراهٍ ، واسْتِنْفادٍ لِلْمَجْهُودِ .

٨ — تَشْرِيحُ القلبِ

ثُمَّ جَرَّدَ قَلْبَ الظَّبْيَةِ (فَصَلَهُ عَلَى حِدَةٍ) ، فَرَآهُ — بادِئَ بَدْءٍ — مُصْمَتًا مِنْ كلِّ جِهةٍ ، أعْنى : أنَّهُ لا تَجْوِيفَ فيهِ .

فَنظرَ : هَلْ يرَى فيهِ آفةً (عِلَّةً) ظاهِرةً ؟ فلَمْ يرَ فيهِ شيْئًا .

° ° °

فَشدَّ يدَهُ علَى القلْبِ ، مُنْعِمًا (مُدَقِّقًا) النَّظرَ ، مُطيلًا التَّفرُّسَ (التَّحْديقَ) ، فتبيَّنَ لهُ أنَّ فيهِ تَجْويفًا !

فقالَ « ابنُ يَقْظانَ » في نَفْسِهِ :

« لعلَّ مَطْلُوبِيَ الأَقصَى (الأَبْعَدَ) ، إنَّما هوَ في داخِلِ هٰذا العُضْوِ ، وأنا — إلى الآنَ — لمْ أصِلْ إليْهِ . »

° ° °

وما إنْ مرَّ هٰذا الخاطِرُ بخَلَدِه (بخاطرِهِ) ، حتَّى أسْرَعَ بإنْفاذِهِ ، ليتَكشَّفَ جَلِيَّةَ الأمْرِ (حَقيقَتَهُ) . وشَقَّ ذٰلك القلْبَ ، فألْفَى فيه تَجْويفَيْنِ اثْنَيْنِ : أَحدُهما منَ الجهةِ اليُمْنَى ، والآخرُ منَ الجهَةِ اليُسْرَى . فَبَحثَ « ابنُ يَقْظانَ » — فاحِصًا — عنِ التَّجْويفِ الأَيْمَنِ : فرَآهُ مَمْلُوءًا بِقِطَعٍ منَ الدَّمِ الغَليظِ الجامِدِ .

ثمَّ فَحَصَ عنِ التَّجْويفِ الأَيْسَرِ ؛ فرَآهُ خالِيًا ، لا شَيْءَ فيه .

فقالَ « ابنُ يَقظانَ » : « لَنْ يَعْدُوَ (لنْ يَفُوتَ) مَطْلَبِي أن يكونَ مَسْكَنُهُ أحدَ هٰذينِ البَيْتَيْنِ ! »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قائلًا :

« أمَّا هٰذا الْبيتُ الْأَيْمَنُ ، فلا أرَى فيه غيْرَ هٰذا الدَّمِ الْمُنْعَقِدِ (الْجامدِ). وَلا شَكَّ فى أنَّ هٰذا الدَّمَ لَمْ يَنْعَقِدْ إلَّا بَعْدَ أنْ صارَ الْجِسمُ كُلُّهُ إلى هٰذا الْحالِ . »

فَأَيْقَنَ « ابنُ يقظانَ » أنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِطِلْبَتِهِ ، ولَمْ يُدْرِكْ غايَتَهُ . وقالَ — فى نَفْسِه — مُتَعجِّبًا :

« لَقَدْ طالَما شاهَدْتُ أنّ الدِّماءَ كُلَّها — مَتى خَرجَتْ وسالَتْ — انْعَقَدَتْ ، وجَمَدَتْ ، وأصْبَحَتْ فى مِثْلِ هٰذا الدَّمِ . وهوَ — فِيما أرَى — كَسائِرِ الدِّماءِ الَّتى تَجْرِى فى جَميعِ أعْضاءِ الْجسمِ بِلا اسْتِثْناءٍ ، وَلَيْسَ يَخْتَصُّ بِها عُضْوٌ دونَ عُضْوٍ آخرَ . وليس مَطْلُوبِى بِهٰذهِ الصِّفَة ؛ إنَّما أبْحَثُ عنْ سِرِّ الْحَياةِ فى هٰذا الْمَوْضِعِ الَّذِى أجِدُنِى لا أسْتَغْنِى عنه طَرْفَةَ عيْنٍ ؛ أَعْنى هٰذا الْقَلْبَ النَّابِضَ ، الَّذِى أشعُرُ بِأنَّهُ يَبْعَثُ فِىَّ الْحَرَكَةَ والنَّشاطَ .

* * *

أمَّا هٰذا الدَّمُ ، فلا خَطرَ لهُ ، وليْسَ هُوَ سِرَّ الْحَياةِ .

فَكَمْ مَرَّةٍ جَرَحَتْنِى الْوُحُوشُ — فى أثْناءِ حَرْبِى معها — فسالَ مِنِّى كثيرٌ

منَ الدَّمِ ؛ فما ضَرَّنى فِقْدانُه ، وَلا أَفْقدنى شَيْئًا منْ أفْعالِى .

وعِنْدِى ، أنَّ هـٰذا الْبَيْتَ الْأَيْمنَ لِيْسَ فيه طِلْبَتِى .

أمَّا الْبَيْتُ الْأَيْسَرُ ، فإِنِّى أراهُ خاليًا ، لا شَىْءَ فيه .

ولأَمْرٍ ما ، خَلا هـٰذا الْبَيْتُ مِمَّا كانَ فيه . وما أرَى أنَّ ذٰلك باطِلٌ .

فإِنِّى رَأَيْتُ أنَّ كُلَّ عُضْوٍ منَ الْأعْضاء إنَّما خُلِقَ لِفِعْلٍ يَخْتَصُّ بهِ .

فكَيْفَ خَلا هـٰذا الْبيتُ وتَعطَّلَ ؟

لا شَكَّ أنَّ الْقُوَّةَ الّتى كانتْ تَسْكُنُهُ قَدِ ارْتَحَلَتْ عنهُ : فتعطَّلَتْ حَرَكَةُ الْجِسْمِ كُلِّهِ بَعْدَهُ .

وما أرَى الْجِسْمَ — بَعْدَ أنِ ارْتَحلتْ عنْهُ تلك الْقُوَّةُ الّتى كانتْ تَبْعثُ فيهِ الْحَياةَ — إلَّا خَسِيسًا تافِها ، لا قِيمَةَ لهُ وَلا خَطَرَ (والْخَطَرُ : ارْتفاعُ الْقَدْرِ) . »

• • •

وأطالَ التَّفْكيرَ وَالبَحْثَ ؛ فأَيْقَنَ أنَّ أُمَّهُ — الّتى كانتْ تُحِبُّهُ وَتَعْطِفُ عَلَيْهِ — لَيْسَتْ فى هـٰذا الْجَسَدِ الْمَيِّتِ ؛ وإنَّما هِىَ فى تلك الْقُوَّةِ الْخَفِيَّةِ الّتى كانتْ تُحَرِّكُ هـٰذا الْجَسَدَ الْهامِدَ !

* * *

وعَرفَ « ابنُ يَقظانَ » أنّ الجَسَدَ الحيَوانِيَّ ، إنّما هُوَ — بِجُمْلَتِهِ — أشْبَهُ شَيْءٍ بآلةٍ تُحرِّكُها الرُّوحُ ، أوْ هُوَ كالعَصا الّتى يَتَّخِذُها الإنسانُ لِقتالِ الوُحُوشِ .

٩ — دَفْنُ الجُثّةِ

وفى خِلال ذٰلكَ نَتُنَ الجِسْمُ ، وفاحَتْ منهُ رَوائِحُ كَرِيهَةٌ .

فزادَ نُفُورُ « ابنِ يَقْظانَ » منْهُ ، ووَدَّ (أحَبَّ) ألّا يَراهُ .

وحارَ « ابنُ يقْظانَ » فى أمْرِهِ ؛ فلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُوارِى (لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يُخْفِى) ذٰلك الجِسْمَ ؟

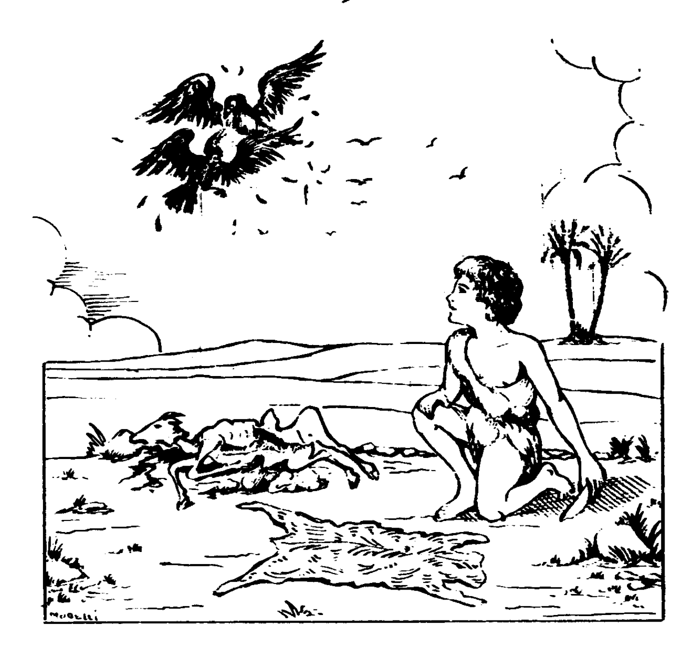
وإنّهُ لَحائرٌ ، لا يَدْرِى كَيْفَ يَصْنَعُ ، إذْ رَأَى غُرابَيْنِ يَقْتَتِلانِ ؛ فوَقَفَ يتأمَّلُ بُرْهةً ، حتى رَأى أحَدَهُما يُلْقِى الآخَرَ مَيِّتاً .

ثُمَّ جعَلَ الحَيُّ يَبْحَثُ — فى الأَرْضِ — حتَّى حفَرَ حُفْرَةً ؛ فوارَى فيها ذٰلك المَيِّتَ بالتُّرابِ .

فقال « ابنُ يَقْظانَ » فى نَفْسِهِ :

« ما أحْسَنَ ما صَنعَ هٰذا الغُرابُ فى مُواراةِ جِيفَةِ صاحِبِهِ (إخْفاء

جُثَّتِهِ) ! وإنْ كان قدْ أساءَ فى قَتْلِهِ إيَّاهُ .



فما كان أجْدرَنِى بالِاهتداءِ إلى هٰذا الْفِعْلِ ! وما أشدَّ غَباوَتى حينَ تَحَيَّرْتُ فى دفْنِ أُمّى . »

ثُمَّ أسْرَعَ « ابنُ يَقْظانَ » ، فَحَفَرَ حُفْرَةً فى الْأَرْض ، وَأَلْقى فيها جَسَدَ أُمِّهِ ، وحَثا عَلَيْهِ التُّرابَ (رَفَعَهُ بِيَدِهِ وَأَهالَهُ ، أَعْنى : رَماهُ علَيْهِ) .

١ – جَوْلَةٌ فى الْجزيرةِ

وبقِىَ « ابنُ يَقْظانَ » يَتفكَّرُ فى ذلك الشىءِ الْمُصَرِّفِ لِلْجَسَدِ ؛ أعْنِى . الرُّوحَ الَّذِى يَبْعَثُ الْحَياةَ فى الْجِسْمِ ؛ فإذا غادرَهُ همَدَ وَفَسَدَ ، وَلَمْ تَبْقَ لِلجِسمِ قيمةٌ .

وَظَلَّ يُطِيلُ التَّأَمُّلَ (التَّفكيرَ) فى ذٰلك الرُّوحِ ، ولا يَدْرِى ما هو ؟ وقد حار فى أمره ، وتَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ .

غَيرَ أَنَّهُ كان ينظرُ إلى أشخاص الظِّباء كُلِّها ؛ فيراها عَلَى شَكْلِ أمِّهِ الظَّبْيَةِ ، وعَلَى صُورَتِها . فكان يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ كلَّ واحدٍ من هٰذه الظِّباءِ المُتَشابهة الأشكالِ ، إنَّما يُحَرِّكُهُ ويُصَرِّفُهُ شَىْءٌ هو مِثْلُ ذٰلك الشَّىْءِ الَّذى كان يُحَرِّكُ أُمَّهُ وَيصرِّفُها : أعنِى : ذٰلك الرُّوحَ الَّذِى يَبْعَثُ الحياةَ فى الْجسم ، ويَمْلَؤُهُ نَشاطًا وَقوَّةً ؛ فإذا خَرَجَ ، بَطَلَتْ حرارةُ الْجسم ، وَأصبحَ لا قيمةَ لَهُ وَلا خَطَرَ .

فكانَ يألَفُ الظِّباء ، ويحنُّ إليها — لِمُشابَهتِها « أُمَّ عَزَّةَ » — ويَحْنُو عليْها بطبْعِهِ ، لِمَكانِ ذٰلكَ الشَّبَهِ .

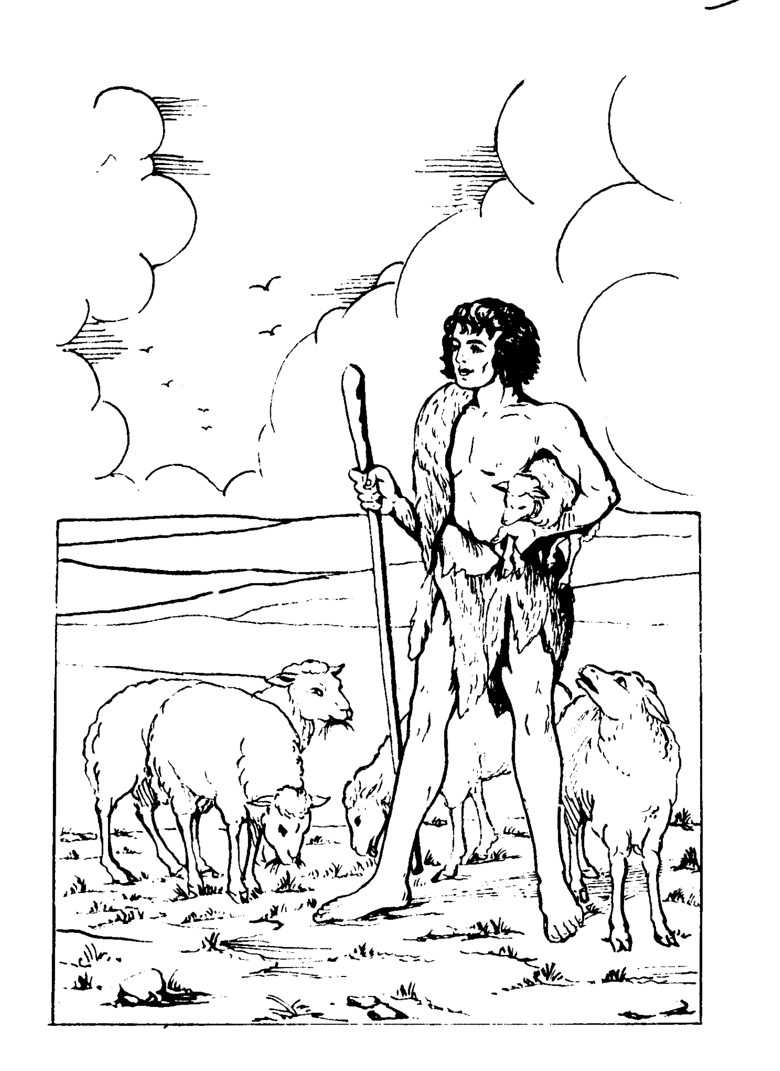
وَبَقِيَ عَلَى ذٰلكَ بُرْهَةً (مُدَّةً طَويلَةً) منَ الزَّمنِ ، يَتَصَفَّحُ (يَتأَمَّلُ) أنواعَ الْحَيوانِ وَالنّباتِ ، وَيَطُوفُ بساحلِ تلك الجزيرَةِ ، لِيَعْلَمَ : هلْ يَجِدُ لنفسهِ شبيهاً في هٰذهِ الجزيرةِ ، كما يَرى — لِكُلِّ واحدٍ من أَشخاصِ الْحَيوانِ وَالنّباتِ — أَشباهًا كثيرةً ؟

فلا يَجِدُ شيْئًا من ذٰلك .

وكان يَرَى الْبَحْرَ قدْ أَحْدَقَ (أحاطَ) بالْجَزيرة من كلِّ جِهَةٍ ؛ فيَعْتَقِدُ أَنَّهُ ليْسَ في الْوُجودِ أرضٌ سِوَى جَزيرَتِهِ تلكَ .

٢ — الِاهْتِداء إلى النّارِ

وَاتَّفَقَ — في بعْضِ الْأَحْيانِ — أَنِ انْقَدَحَتْ (اشْتَعَلَتْ) نارٌ في أَجَمَةٍ . فلمَّا بَصُرَ بها ، رأَى مَنْظَرًا هالَهُ وأَدْهَشَهُ ، وَخَلْقًا لم يَعْتَدْهُ منْ قَبْلُ ؛ فوَقَفَ يَتَعَجَّبُ مَلِيًّا (وَقْتًا) . وَما زالَ يَدْنُو وَيَقْتَرِبُ منَ النّارِ — شَيْئًا فَشَيْئًا — حتى أَصْبَحَ عنْ كَثَبٍ (عَلَى قُرْبٍ) منها .



فرأى ما للنّارِ منَ الضَّوْءِ الثاقِبِ (الْمُرْتفع الشَّديدِ النُّورِ) ، وَالْفِعْلِ الْغالبِ : فما تتعلَّقُ وَتتَّصِلُ بِشَىْءٍ إِلّا أتتْ عليْهِ وأهْلكَتْهُ ، وَأحالَتْهُ إلى نفْسِها (حوَّلَتْهُ إلى طَبيعَتِها ، وَجعَلتْهُ نارًا) .



فاشْتَدَّ عَجَبُ « ابنِ يقْظانَ » ، وَتَعاظَمَتْهُ الدَّهْشةُ (اشتَدَّتْ بِهِ) . وحَمَلَهُ العَجَبُ بها ، وما رَكَّبَ اللهُ — تعالَى — فى طِباعِهِ منَ الْجُرْأةِ والقُوَّةِ ، عَلَى أنْ يَمُدَّ يدَهُ إلى النّارِ . وأرادَ أنْ يأْخُذَ منها قبَسًا (شُعْلَةَ نارٍ) ؛ فلمّا باشرَها أحْرَقتْ يدَهُ ، وَلَمْ يَسْتطِعِ القَبْضَ عليها .

٣ — فضْلُ النّارِ

ثُمَّ اهْتَدَى إِلَى أن يَأْخُذَ عُودًا لَمْ تَسْتَوْلِ النّارُ عَلَى جَميعِهِ . فأَخَذَ بِطَرَفِهِ السَّلِيمِ — وَالنّارُ مُشْتَعِلَةٌ فى طَرَفِهِ الْآخَرِ — فتأَتَّى لهُ ذٰلك (تَيَسَّرَ) ، وَسهُلَ عليْه أن يُمْسِكَ بالْعُودِ ، منْ غيرِ أَنْ تَصلَ إلى يَدهِ النّارُ . ثمَّ حَمَلَهُ إِلى مَوْضِعه الّذى كانَ يَأوِى إليْهِ (يَسْكُنُهُ) .

وكانَ « حَىُّ بنُ يقظانَ » قَدْ خَلا (أنْفَرَدَ) فى جُحْرٍ ، كان اُسْتَحْسَنَهُ للسُّكْنَى قبلَ ذٰلك . فَصارَ يُمِدُّ تلك النّارَ بالْحَشِيش وَالْحطَبِ الْجزْلِ (الْغَلِيظِ الْعظيمِ) ، وَيتَعَهّدُها (يَرْعاها وَيتَفقَّدُها) لَيْلًا وَنهارًا ، اُسْتِحْسانًا لها ، وَتَعجُّبًا منها .

وكانَ يَزِيدُ أُنْسُهُ بها لَيْلًا ؛ لأنَّها تقومُ له مَقامَ الشَّمْسِ فى الضِّياءِ وَالدِّفْءِ . فَعظُمَ بها وَلُوعُهُ ، وَاشتَدَّ لها حُبُّهُ ، وَزادَ عَلَيْها إقْبالُهُ ، وَاعتقَدَ أَنَّها أفضلُ الْأَشْياءِ الّتى لَدَيْهِ .

٤ — قُوَّةُ النّـــــار

وكان يَراها — دائمًا — تَتحرَّكُ إلى أعلَى ، وَتطلُبُ السُّمُوَّ ؛ فَغَلَبَ

عَلَى ظَنِّهِ أَنَّها من جُمْلَةِ الْجواهِرِ السَّماوِيَّةِ (يَعْنى : النُّجُومَ والْكواكِبَ) الَّتى يُشاهِدُها مُتَأَلِّقَةً (مُضِيئَةً لامِعَةً فى السَّماء) .

وكان « ابنُ يَقْظانَ » يَخْتَبِرُ قُوَّةَ النَّارِ فِي جميع الأشْياء ، بِأَنْ يُلْقِيَها فِيها ؛ فَيَرَاها مُسْتَوْلِيَةً عَلَى كُلِّ شَىْءٍ ، إِمَّا بِسُرْعَةٍ وإِمَّا بِبُطْءٍ ، بِحَسَبِ قُوَّةِ اسْتِعْدادِ الْجِسْمِ — الَّذِى كانَ يُلْقِيهِ فِيها — لِلاِحْتِرَاقِ ، أَوْ ضَعْفِهِ .

٥ — الشِّــــواء

وكانَ مِنْ جُمْلَةِ ما أَلْقَى فيها — عَلَى سبيلِ الاِخْتِبار لِقُوَّتِها — شَىْءٌ مِن أَصْناف الْحَيَوانِ الْبَحْرِيَّةِ ، كانَ قَدْ أَلْقاهُ الْبَحْرُ إلى ساحِلِه .

فلَمَّا أَنْضَجَتِ النَّارُ ذٰلِكَ الْحَيَوانَ البَحْرِىَّ ، هَبَّتْ عَلَى « ابْنِ يَقْظانَ » رائِحَةُ ذٰلِكَ الشِّواءِ (اللَّحْمِ الْمَشْوِىِّ) اللَّذِيذِ ، وسَطَعَ قُتارُهُ (ارْتَفَعَتْ رائِحَتُهُ وانْتَشَرَتْ) ؛ فتحَرَّكَتْ رغْبَتُهُ إِلَيْهِ ؛ فَأَكَلَ مِنْهُ شَيْئاً ، فاسْتَطابَهُ .

فاَعْتادَ « ابْنُ يقْظانَ » — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ — أَكْلَ اللَّحْمِ ، وأَقْبلَ عَلَى الشِّواءِ ، وآثَرَهُ (اخْتارَهُ وقَدَّمَهُ) عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَلْوانِ الأَطْعِمَة الْمُخْتَلِفَةِ .

فَصَرَّفَ الْحِيلَةَ فِي صَيْدِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى مَهَرَ فِي ذٰلِكَ وَأَتْقَنَهُ وزادَتْ مَحَبَّتُهُ فِي النّارِ وشَغَفُهُ بها ، لِما رَآهُ مِنْ فَوائِدِها ؛ إِذْ تَأَتَّى لَهُ بِها — مِنْ وُجُوهِ الاِغْتِذاءِ الطّيِّبِ — شَيْءٌ لَمْ يَتَأَتَّ لَهُ قبْلَ ذٰلِكَ .

٦ – ظُنُونُ « ابْنِ يَقْظانَ »

واشْتَدَّ شَغَفُ « ابْنِ يَقْظانَ » بِها ؛ لِما رَأَى مِنْ حُسْنِ آثارِها ، وَقُوَّةِ اقْتِدارِها . وقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِ ، ووقَعَ فِي نَفْسِه ، أَنَّ الشَّيْءَ الّذِي أُرْتَحَلَ مِنْ قَلْبِ أُمِّهِ الظَّبْيَةِ — الَّتِي أَنْشَأَتْهُ ورَبَّتْهُ — كانَ مِنْ جَوْهَرِ النّارِ ، أوْ مِنْ شَيْءٍ يُجانِسُهُ (يَتَّحِدُ مَعَهُ فِي بَعْضِ صِفاتِهِ) .

وأَكَّدَ ذٰلِكَ — فِي ظَنِّهِ — ما كانَ يَراهُ مِنْ حَرارَةِ الْحَيَوانِ — طُولَ مُدَّةِ حَياتِه — وبُرُودَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ .

وكانَ يَرَى هٰذِهِ الْقاعِدَةَ مُطَّرِدَةً (جارِيَةً مُسْتَقِيمَةً) دائِماً ، لا تَخْتَلُّ ، ولا يُسْتَثْنَى مِنْها شَيْءٌ . وقَدْ زادَ وُثُوقَهُ — بِصِحَّةِ ما اهْتَدَى إِلَيْهِ — أَنَّهُ كانَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ حَرارَةً شَدِيدَةً عِنْدَ صَدْرِهِ ؛ بِإِزاءِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كانَ قَدْ شَقَّهُ مِنَ الظَّبْيَةِ .

فوقعَ في نفسِهِ أنّهُ لوْ أخذَ حيوانًا، وشقَّ قلبَهُ ، ونظرَ إلى ذلكَ التَّجويفِ الَّذي صادفَهُ خاليًا — عندما شقَّ صدرَ أمِّهِ الظَّبيةِ — لرآهُ — في هذا الحيوانِ الحيِّ — وهوَ مملوءٌ بذلكَ الشّيءِ السَّاكنِ فيهِ .

ثُمَّ قالَ « ابنُ يقظانَ » في نفسِهِ :

« ومَنْ يُدريني ؟ لعلَّ شيئًا منْ جوهرِ هذهِ النّارِ — أو ما يُشابِهُهُ ، أوْ قريبًا منْهُ — هُوَ الّذي يبعثُ الحرارةَ والحياةَ في قلبِ الحيوانِ . فلا بُدَّ لي منَ الفحْصِ عنهُ ، لعلَّ فيهِ شيئًا منَ الضَّوءِ أو الحرارةِ .

٧ — قلبُ الوَحْشِ

ولَمْ يستَقِرَّ في نفسِهِ هذا الخاطِرُ ، حتى عَمَدَ إلى بعضِ الوُحُوشِ ، وأوْثقَ فيهِ كِتافًا (أوْثقَهُ في كِتافٍ ؛ أعْني : شَدَّهُ في حَبْلٍ . والكِتافُ حَبْلٌ تُشدُّ بهِ اليدانِ إلى خلْفِ الكَتفَيْنِ) .

ولمَّا تمَّ لهُ ذلكَ ، شقَّهُ — عَلَى الصِّفَةِ التي شقَّ بها صدْرَ الظَّبيةِ — حتى وصلَ إلى القلْبِ . فقصدَ — أوَّلًا — إلى الجهةِ اليُسْرى منهُ ، وشقَّها ؛ فرأى ذلكَ الفراغَ مملوءًا بهواءٍ بُخاريٍّ يُشبِهُ الضَّبابَ الأبيضَ . فأدخلَ إصبَعَهُ ؛

فوَجدَهُ منَ الْحَرارَةِ بحَيْثُ يَكادُ يُحْرِقُهُ . وَماتَ ذٰلكَ الْحَيوانُ عَلَى الْفوْرِ (منْ غَيْرِ بُطْءٍ وَلا تأْخيرٍ) .

فَصَحَّ عنْدَ « ابنِ يَقْظانَ » أنّ ذٰلكَ الْبُخارَ الحارّ ، هُوَ الَّذى كانَ يُحَرِّكُ هٰذا الْحَيوانَ ، وأنّ فى كُلِّ شَخْصٍ — منْ أشْخاصِ الْحَيَوانِ — مثْلَ ذٰلكَ ، ومتَى انفصلَ عنِ الْحيوانِ ، مات !

ثُمَّ تحَرَّكَتْ فى نَفْسِهِ الشَّهْوَةُ لِلْبَحْثِ عن سائرِ أعْضاءِ الحَيوانِ ، وَترْتيبها ، وأوْضاعِها ، وكَمِّيّاتها ، وكَيْفيَّةِ ارْتباطِ بَعضِها بِبَعْضٍ ، وكَيْفَ تَسْتَمِدُّ الْحَياةَ منْ هٰذا الْبُخارِ الْحارِّ ، وكَيفَ يَسْتَمِرُّ هٰذا البخارُ ، وَيَبقَى طولَ مدَّةِ بقائها ، ومنْ أَيْنَ يَسْتَمِدُّهُ الحيَوانُ ، وكَيفَ لا تَنْفَدُ حرارَتُه ، ولماذا لا تَفْنَى .

وظلَّ يُسائِلُ نَفْسَهُ هٰذهِ الْأَسْئلَةَ وأشْباهَها ، وَيَتَتَبَّعُ ذٰلكَ كُلَّهُ بتَشْريحِ أنواعِ الْحَيوانِ كلِّهِ — منَ الأَحْياءِ والْأَمْواتِ — لَعلَّهُ يَهْتَدِى إلى سِرِّ الحياةِ ، ومَصْدرِ الحرَكَةِ والْقُوَّةِ .

ولَمْ يَزَلْ يُنْعِمُ النَّظرَ فيها ، ويُجيلُ الفِكْرَةَ ، حتَّى بَلغَ — فى ذٰلكَ كلِّهِ — مَبْلغَ كِبارِ الْعُلَماءِ !

٨ – الرُّوحُ والْجَسدُ

فَتبيَّنَ أنَّ كُلَّ شَخْصٍ منْ أشخاصِ الْحَيوانِ – وإنْ كان كَثيرًا بأَعْضائهِ ، وَتفَنُّنِ حَواسِّهِ وَحرَكاتهِ – واحِدٌ بذٰلك الرُّوحِ الَّذِى يَتماثَلُ فى كُلِّ كائِنٍ حىّ . ورَأَى أنَّ مَبْدَأَ هـٰذا الرُّوحِ مِن قَرارٍ واحدٍ ، وأنَّ انْقسامَه – فى سائر أعْضاء الجِسم – مُنْبَعثٌ منهُ ، وأنَّ جَميعَ الأَعْضاء – عَلَى اختلاف أعمالها ، وَتبايُنِ أشكالها ، وَتفاوُتِ أخْطارها (تَبايُنِ أقْدارها ، واخْتِلافِ قِيمَةِ كُلٍّ منْها) – إنَّما هى خادِمةٌ لِهٰذا الرُّوحِ ، أَوْ مُؤَدِّيةٌ عنه رَغَباتِهِ ، ومُنْفِذةٌ لإرادتهِ ، ومُحَقِّقةٌ لِمَشيئتِهِ .

وَأَدْركَ « ابنُ يقظانَ » أنَّ مَنْزِلَةَ ذٰلك الرُّوحِ – فى تصريفِ الجَسَدِ – كَمَنْزِلَةِ الإنْسانِ من الأدواتِ والآلاتِ الَّتى يَسْتعمِلُها ، أو كَمَنْزِلَةِ منْ يُحارِبُ الأَعْداء بالسِّلاحِ التّامِّ ، أو يَصيدُ جميعَ صَيْدِ الْبحرِ والْبرِّ ؛ فيُعِدُّ لِكلِّ جِنْسٍ آلةً لِيَصيدَه بها ، ويُقَسِّمُ أَدواتِ الْحَرْبِ الَّتى يُحارِبُ بها إلى أقسامٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ فَيتَّخِذُ بَعْضَها لِحمايتِهِ ، والدِّفاعِ عن نفسه مِمَّنْ يُهاجِمُهُ ، وَيتَّخِذُ بَعْضَها الآخَرَ لِمُهاجمَةِ غيْرِهِ ،

والتَّغلُّبِ عليهِ ، والنِّكايةِ بهِ (إيذائِهِ والكيْدِ لهُ) .

وكذلك آلاتُ الصَّيْدِ ، تَنْقَسِمُ إلى ما يَصْلُحُ لِحَيَوانِ البَحْرِ ، وإلى ما يَصْلُحُ لِحَيَوانِ البَرِّ .

وكذلك الأشْياء الّتى يُشَرِّحُ بها أجْسادَ الحَيوانِ (يُقَطِّعُها) ، تَنْقسِمُ أقْسامًا : ما يَصْلُحُ لِلشَّقِّ ، وما يَصْلُحُ للكَسْرِ ، وما يَصْلُحُ للثَّقْبِ .

ورأى أنَّ تِلكَ الأدواتِ المُخْتلِفَةَ ، والأعْمالَ المُتَنوِّعةَ ، إنّما يَقومُ بها شَخْصٌ واحِدٌ ، وَيَقومُ بأَدائِها — بمُفْرَدِهِ — بَدَنٌ واحِدٌ ، وَيُصَرِّفُها أنْحاء منَ التَّصْرِيفِ ، بِحَسَبِ ما تَصْلُحُ لَهُ كلُّ آلةٍ ، وَبِحَسَبِ الغاياتِ الّتى تُلْتَمَسُ (تُطْلَبُ) بِذلك التَّصَرُّفِ .

٩ — أدواتُ الحياةِ

وَأطالَ « ابنُ يَقظانَ » تَأَمُّلَهُ فى هٰذِهِ الحقائقِ — التى هَداهُ إليْها عقلُهُ وتفكيرُهُ — فرآها صَحيحةً ، لا يتَطرَّقُ إليْها الشَّكُّ ، وَرأى ذٰلكَ المِثالَ مُنْطَبِقاً أشَدَّ الانْطِباقِ عَلَى ذٰلكَ الرُّوحِ الحَيوانىِّ ، الّذى يُصَرِّفُ

كلِّ أعْضاء الجَسَدِ ، وَيُشِعُ الْحَياةَ (يُوَزِّعُها وَيُفَرِّقُها) فى كلِّ جُزْء منْ أجْزائه .

وأيقنَ « ابْنُ يَقْظانَ » أنَّ الرُّوحَ الْحَيوانِيَّ واحِدٌ ، وَلٰكِنَّ أفْعالَهُ تَخْتلِفُ باخْتِلافِ الأدَواتِ الَّتى يُباشِرُ بها أعْمالَهُ ، وَيُحَقِّقُ بها مَشيئتَهُ .

فإذا عَمِلَ — بآلَةِ الْعَيْنِ — كانَ فِعْلُهُ : إبْصارًا .

وإذا عَمِلَ — بآلَةِ الأُذُنِ — كانَ فِعْلُهُ : سَمْعًا .

وإذا عَمِلَ — بآلَةِ الأَنْفِ — كانَ فِعْلُهُ : شَمًّا .

وإذا عَمِلَ — بآلَةِ اللِّسانِ — كانَ فِعْلُهُ : ذَوْقًا .

وإذا عَمِلَ — بالْجِلْدِ واللَّحمِ — كانَ فِعْلُهُ : لَمْسًا .

وإذا عَمِلَ — بأحَدِ الأعْضاء — كانَ فِعْلُهُ : حَرَكَةً .

وإذا عَمِلَ — بالْكَبِدِ — كانَ فِعْلُهُ : غِذاء .

١٠ — فضْلُ الرُّوحِ

ولِكلِّ واحِدٍ — مِنْ هٰذهِ — أعْضاء تَخْدُمُهُ ، وَلا يَتِمُّ

– لِشَىْءٍ مِنْ هٰذه جميعًا – فِعْلٌ إِلَّا بما يَصِلُ إِلَيْها مِنْ ذٰلكَ الرُّوحِ على الطُّرُقِ الَّتى تُسَمَّى : عَصَبًا .

ومَتى انقطعَتْ تلك الطُّرُقُ – أو انْسَدَّتْ – تَعَطَّلَ فِعلُ ذٰلكَ العُضْوِ .

• • •

وَهٰذا الرُّوحُ يَسْرِى فى جَميعِ الأَعْضاءِ ؛ فأَىُّ عُضْوٍ مِنها عَدِمَ هٰذا الرُّوحَ – بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبابِ – تَعطَّلَ فِعْلُهُ ، وَصارَ بِمَنْزِلَةِ الآلةِ المُطَّرَحَةِ (المَتْرُوكَةِ المُهْمَلَةِ) الَّتى لا يُصَرِّفُها أَحَدٌ ، وَلا يَنْتَفِعُ بِها .

• • •

فإِنْ خَرَجَ هٰذا الرُّوحُ – بِجُمْلَتِهِ – من الجَسَدِ ، أَوْ فَنِىَ – بِوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ – تَعطَّلَ الجَسَدُ كلُّه ، وَصارَ إلى حالَةِ المَوْتِ .

١ — فى الحادِيَةِ والعِشْرِين

ومَضَى عَلَى « حَىّ بنِ يَقْظانَ » إحْدَى وَعِشْرُونَ سنةً . وقد تفنَّنَ — فى خِلالِ هٰذهِ المُدَّةِ — فى وُجُوهِ حِيَلِه ، واكْتَسَى بجُلُودِ الحَيوانات الَّتى كان يُعْنَى بتشريحها وَدَرْسِها ، وَصَنعَ لهُ من تلك الجُلودِ أحْذِيَة يَنْتَعِلُها ويَحْتَذِيها فِى أثْناء المَشْىِ والتَّجْوالِ .

* * *

واتَّخَذَ الخُيُوطَ من أَشْعارِ الدَّوابِّ ، وقَصَبِ القِنَّبِ (وَهُوَ : نَباتٌ تُفْتَلُ مِنْ قِشْرِهِ الحِبالُ) ، وَكلِّ نَباتٍ ذِى خَيْطٍ .

وصَنعَ الأمْشاطَ منَ الشَّوْكِ القوِىّ، والقَصَبِ المُحَدَّدِ (المَسْنُونِ حَدُّهُ) عَلَى الحِجارَة .

٢ — بَيْتُ « ابْنِ يَقْظانَ »

وَقد اهْتَدَى إلى البِناء بما رَأَى من فِعلِ الخَطاطِيفِ (والخُطَّافُ :

طائرٌ أَسْوَدُ ، طَوِيلُ الْجَناحَيْنِ ، قَصيرُ الرِّجْلَيْنِ) ؛ فَقَلَّدَ الخَطاطِيفَ فى بناءِ مَساكِنِها وَأَوْكارِها (عِشاشِها) ، واتَّخَذَ لهُ مَخْزَنًا لِفَضْلَةِ غِذائِهِ (بَقِيَّةِ أَكلِهِ) وَبَيْتًا لسُكْناهُ . وحَصَّنَهُما ببابٍ من القصَبِ الْمَرْبوطِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ؛ لِئَلَّا يَصِلَ إليهِ شىءٌ من الحَيوانِ ، عندَ مَغيبِهِ عن تلك الْجِهَةِ فى بَعضِ شُئُونِهِ .

* * *

وهٰكذا وُفِّقَ « ابنُ يقظانَ » إلى بناءِ بَيْتِه ، وتنظيمِ أُمُورِهِ ، بفضْلِ رَجاحَةِ عَقْلِهِ ، ودِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ ، وحُسْنِ تَأَمُّلِهِ .

٣ — أَدَوَاتُ الصَّيْدِ

وَاسْتَأْلَفَ « ابنُ يَقْظانَ » جَوارِحَ الطَّيْرِ (جَعَلَها بالتَّعليمِ أليفَةً . وجَوارِحُ الطَّيْرِ : هى الَّتى تَأْكلُ مِمَّا تَصيدُهُ مِنَ الْحَيَوانِ) ، لِيَسْتَعينَ بها فى الصَّيْدِ .

واتَّخَذَ الدَّواجِنَ (الطُّيُورَ الَّتى تَأْلَفُ الْبيُوتَ) لِيَنْتَفِعَ بِبَيْضِها وفِراخِها .

• • •

وَاتَّخَذَ مِنْ صَياصِي الْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ (قُرُونِها) أَشْباهَ الأَسِنَّةِ (والسِّنانُ : حَدِيدَةُ الرُّمْحِ الْمُدَبَّبَةُ) ، ورَكَّبَها فِي الْقَصَبِ الْقَوِيِّ ، وفِي عِصِيِّ الزَّانِ وغيْرِها . واسْتَعانَ — فِي صَقْلِها — بالنَّارِ ، وبحُرُوفِ الحِجارَة ، حَتَّى صارَت شِبْهَ الرِّماح .

واتَّخَذَ تُرْسَهُ (الثَّوْبَ الَّذِى يَحْفَظُ جَسَدَهُ مِنْ أَنْ يُجْرَحَ) مِنْ جُلُودٍ مُضاعَفَةٍ (بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ) .

وإنَّما اضْطَرَّهُ إلَى اتِّخاذِها ما رآه مِنْ عَجْزِهِ عَنْ مُقاوَمَةِ الْوُحُوشِ الْقَوِيَّةِ ، لِفِقْدانِ السِّلاحِ الطَّبِيعِيِّ .

٤ — تَذْلِيلُ الدَّوابِّ

وَرَأَى « ابْنُ يَقْظانَ » أَنَّ يَدَهُ تَفِي لَهُ بِكُلِّ ما فاتَهُ مِنْ ضُروبِ النَّقْصِ والْحاجةِ . وكانَ لا يُقاوِمُهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوانَاتِ على اخْتِلافِ أَنْواعِها وتبايُنِ أَجْناسِها . فعَرَفَ — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ — فَضْلَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ ، وَأَكْبَرَهُما إِكْبارًا عَظيماً .

• • •

ولٰـكنَّهُ رَأَى أَنَّ بَعضَ الْحَيَوانات يَفِرُّ مِنْهُ ، فيُعْجِزُهُ هَرَبًا ، وَلا يَسْتَطِيعُ اللَّحاقَ بِهِ ، مَهْمَا يُجْهِدْ نَفْسَهُ فى الْعَدْوِ خَلْفَهُ ، والْجَرْى وَراءَهُ .

فَفَكَّرَ « ابْنُ يَقْظانَ » فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي ذٰلِكَ ، وَأَنْعَمَ النَّظَرَ (أَطالَ التَّأَمُّلَ والتَّفْكِيرَ) : فَلَمْ يَرَ أَنْجَحَ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَأَلَّفَ

(يَسْتَمِيلَ) بَعضَ الْحَيَوانَاتِ الشَّدِيدَةِ الْعَدْوِ ، ويُحْسِنَ إِلَيْهَا بِالْغِذاءِ الَّذِى يَصْلُحُ لَها ، حتَّى يَتَأَتَّى لَهُ الرُّكُوبُ عَلَيْها ، ومُطارَدَةُ سائِرِ الْحَيَوانِ بِها .

وكانَ بِتلكَ الْجَزِيرَةِ خَيْلٌ بَرِّيَّةٌ ، وحُمُرٌ وَحْشِيَّةٌ ؛ فاتَّخَذَ مِنْها ما يَصْلُحُ لَهُ ، وراضَها (دَرَّبَها ومَرَّنَها) حَتَّى كَمُلَ لَهُ بِها غَرَضُهُ . وعَمِلَ عَلَيْها — مِنَ الْجُلُودِ — أَمْثالَ السُّرُوجِ والشَّكائِمِ (وهى : الْحَدِيدُ الْمُقَوَّسُ الَّذِى يُوضَعُ فِى فَمِ الْخَيْلِ) .

فَتَأَتَّى لَهُ بِذٰلِكَ ما أَمَّلَهُ فى اللَّحاقِ بِالْحَيَوانَاتِ الَّتى صَعُبَتْ عَلَيْهِ الْحِيلَةُ — مِنْ قَبْلُ — فى مُطارَدَتِها وَأَخْذِها .

• • •

وَإِنَّما تَفَنَّنَ فى هٰذِهِ الْأُمُورِ كُلِّها — فِى وَقْتِ اشْتِغالِهِ بِالتَّشْرِيحِ ، وَرغبتِهِ فِى الدَّرْسِ — رَغْبَةً فِى الْوُقُوفِ عَلَى خَصائِصِ أَعْضاءِ الْحَيَوانِ ، وَبِماذا تَخْتَلِفُ ؟

وَما بَلَغَ الْحادِيَةَ والْعِشْرِينَ — كَما أَسْلَفْنا فى أَوَّلِ هٰذا الْفَصْلِ — حَتَّى بَرَعَ فِى ذٰلِكَ ، وَأَتْقَنَهُ ، وَمَهَرَ فيهِ .

٥ — بَعْدَ الحادِيَةِ والْعشرين

ثُمَّ إنّهُ — بَعْدَ ذٰلِكَ — أخَذَ فى مآخِذَ (مَناهِجَ وَمَسَالِكَ) مِنَ النَّظَرِ . فَتَصَفَّحَ جَميعَ ما حَوْلَهُ مِنَ الْحَيَوانَاتِ — على اخْتِلافِ أَنْواعِها — وَالنَّباتِ ، والمَعادِنِ ، وَأَصْنافِ الْحِجارَةِ ، والتُّرابِ ؛ وَالْماء ، والْبُخارِ ، والثَّلْجِ ، والْبَرْدِ ، والْحَرِّ ، والدُّخَانِ ، واللَّهِيبِ . فَرَأى لها أوْصافًا كَثِيرَةً ، وأفْعالًا مُخْتلِفَةً ، وحَركاتٍ مُتَّفِقَةً ومُتضادَّةً .

وأنْعَمَ النَّظرَ فى ذٰلك ، وَأطالَ التَّثَبُّتَ ، فَرَأى أنّها تَتَّفِقُ بِبَعْضِ الصِّفاتِ ، وتَخْتَلِفُ بِبَعْضٍ ، وَأَنَّها مِنَ الْجِهَةِ الَّتى تَتَّفِقُ بها وَاحِدَةٌ ، ومِنَ الْجِهَةِ الَّتى تَخْتَلِفُ فيها مُتَغايِرَةٌ ومُتَكَثِّرَةٌ . فَكانَ — تارَةً — يَنْظُرُ فى خَصائِصِ الأَشْياءِ ، وما يَنْفَرِدُ بِهِ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ ؛ فَتَكْثُرُ عِنْدَهُ كِثْرَةً تَخْرُجُ عنِ الْحَصْرِ (الْإحاطَةِ) .

وكانَ إذا تأمَّلَ فى نَفْسِه ، وأَنْعَمَ النَّظَرَ فى أَمْرِهِ ، تَكَثَّرَتْ ذاتُهُ أمامَهُ ؛ لِأَنَّه كانَ يَنْظُرُ إِلَى اخْتِلافِ أَعْضائِهِ ، ويَرَى أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْها مُنْفَرِدٌ بِفِعْلٍ وَصِفَةٍ تَخُصُّهُ . وكانَ يَنْظُرُ إلى كُلِّ عُضْوٍ منْها ؛

فيَرى أنَّهُ يَحتمِلُ القِسْمَةَ إلى أجْزاءٍ كثيرةٍ جدًّا .

فحَكَمَ عَلَى ذاتهِ بالكثْرَةِ ، وكذلِكَ على ذاتِ كُلِّ شىْء .

٦ — وَحْدَةُ الإنسانِ

ثُمَّ كانَ « ابنُ يَقظانَ » يُجيلُ بَصَرَهُ (يُديرُ نَظرَهُ) ، ويُمعِنُ فِكرَهُ (يُطيلُ تأمُّلَهُ) ، راجعًا إلى نَظرٍ آخرَ ، من طريقٍ غيرِ الطَّريقِ الأوَّلِ .

فيرَى أنَّ أعْضاءَهُ ، وإنْ كانَتْ كثيرةً ، فهِيَ — عَلَى كَثْرَتِها واخْتِلافِ أعمالِها — متَّصلٌ بَعْضُها ببعْضٍ ، وليسَ بيْنَها أقَلُّ انفصالٍ .

فهِي — لذلكَ — واحِدَةٌ ، أوْ هِيَ تكادُ تكونُ شيئًا واحِدًا ؛ لأنَّها لا تَخْتَلِفُ إلَّا بِحَسَبِ اخْتلافِ أفْعالِها . وقَدْ نَشَأَ ذلكَ الاخْتِلافُ بِسَبَبِ ما يَصِلُ إليْها من قُوَّةِ الرُّوحِ الحَيَوانِيِّ الَّذِى ينتَظِمُها جميعًا .

وقَدْ عرَفَ « ابن يقظانَ » أنَّ ذلك الرُّوحَ الحيوانِيَّ واحدٌ . وَأنَّهُ يجرِى فى سائرِ الأعْضاء ؛ فَيبْعَثُ فيها الحياةَ ، وتُصْبِحُ كلُّها أشْبَهَ بالآلات . فأيْقَنَ « ابنُ يقظانَ » — حينئِذٍ — أنَّ ذاتَهُ واحِدَةٌ ، وَإنِ اخْتَلَفَتْ أعْضاؤُها ، وتَعَدَّدَتْ أفْعالُها وَصُوَرُها .

٧ — وَحْدَةُ الْحَيَوانِ

ثُمَّ أَجالَ بَصَرَهُ (أدارَ عَيْنَهُ)، وأطالَ تَأَمُّلَهُ فى جميع أنواعِ الْحَيَوانِ، وَظَلَّ يَنْظُرُ إلى كلٍّ نَوْعٍ مِنْها بِمُفْرَدِهِ ، كالظِّباء ، والْخَيْلِ ، وَأَصْنافِ الطَّيْرِ — صِنْفًا صِنْفًا — فماذا رَأَى ؟

لَقَدْ رَأَى عَجَبًا ، وَهَداهُ فِكْرُهُ إلى نَتائِجَ غايةٍ فى السَّدادِ (الصَّوابِ) والصِّحَّةِ . فَقَدْ كانَ يَرَى أَشْخاصَ كُلِّ نَوْعٍ — مِنْ أَنْواعِ الْحَيَوانِ — يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فى أَعْضائِهِ الظَّاهِرَةِ والْباطِنَةِ ، والْإِدْراكاتِ ، والْمَنازِعِ (الْمَذاهِبِ والْغاياتِ) ، وَلا يَرَى بَيْنَها اخْتِلافًا إلّا فى أشْياء يَسِيرَةٍ بالْإِضافَةِ إلى ما اتَّفَقَتْ فيه . وكانَ يَحْكُمُ بأَنَّ الرُّوحَ الَّذى لِجَمِيعِ ذٰلك النَّوْعِ : شَىْءٌ واحدٌ ، وأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ إلَّا لِأَنَّهُ انْقَسَمَ على أجْسادٍ كثيرَةٍ ، وَأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ أنْ يَجْمَعَ جَميعَ الَّذى افْتَرَقَ فى تلكَ الأجْسادِ منهُ ، ويَجْعَلَهُ فى وِعاءٍ واحِدٍ ، لَكانَ كلُّهُ شَيْئًا واحدًا . فَكانَ يَرَى نَوْعَ الظِّباءِ كلَّها واحِدًا بِهٰذا النَّظَرِ ، ويرَى نَوْعَ الْبقرِ كلِّهِ واحِدًا ، ونَوْعَ الجيادِ كلِّها واحِدًا ، وهٰكذا . . .

وكانَ يُشَبِّهُ أشْخاصَ الحَيوانات الْمُخْتَلِفَةِ بِأَعْضاء الشَّخْصِ الواحِدِ ،

الّتى يَنْتَظِمُها ويَسْلُكُها (يَجْمَعُها ويَضُمُّها) رُوحٌ واحِدٌ ، وتَسْرِى فيها حَياةٌ واحِـدَةٌ . فَهِىَ واحِدَةٌ ، وإنْ تكَثَّرَتْ آحادُها ، وتَعدَّدتْ أَفْرادُها .

٨ — الصِّفاتُ العامَّة

ثُمَّ كانَ يَحْصُرُ جَميعَ أَنْواعِ الْحَيواناتِ كُلِّها فى نَفْسِه ، ويُجِيلُ بَصرَهُ فِيها ، ويُطيلُ تَأَمُّلَها . فماذا يَرَى ؟

يرَى أنَّها تتَّفِقُ جَميًّا فى أنَّها تُحِسُّ ، وتَغْتَذِى (تَنْمُو بالْغِذَاء) ، وتَتَحَرَّكُ — بِالإرادة — إلى أىِّ جِهةٍ شاءتْ .

وكانَ « أَبْنُ يَقظانَ » قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْحِسَّ ، والِاغْتِذاء ، والحَرَكَةَ : هِىَ أَخَصُّ أفْعالِ الرُّوحِ الْحَيوانِىِّ ، وأن سائرَ الأَشْياءِ الّتى تَخْتلِفُ فيها أَنْواعُ الْحَيوانِ – بَعْدَ هٰذا الِاتِّفاقِ — لَيْسَتْ جَوْهَرِيَّةً (لَيْسَت أَصيلةَ ذاتَ شَأْنٍ) ، وَلَيْسَ لَها خَطَرٌ يُذْكَرُ ، وَلا قَدْرٌ يُؤَثِّرُ ، لِأَنَّها لَيْسَتْ شَديدةَ الِاخْتصاصِ بالرُّوحِ الْحَيوانِىِّ .

فَظهرَ لَهُ — بهٰذا التَّأَمُّلِ — أَنَّ الرُّوحَ الحَيوانِىَّ الَّذِى لِجَميعِ

جِنْسِ الْحيوَانِ هُوَ واحِدٌ بِالحَقِيقةِ ، وَإِنْ كانَ فيهِ اخْتِلافٌ يَسِيرٌ ، اخْتُصَّ بِهِ نَوْعٌ دُونَ نَوْعٍ .

• • •

وَقدْ شَبَّهَ ذٰلِكَ تَشْبِيهًا رائِعًا ، فقالَ :

« إنَّ مَجْموعَ هٰذِهِ الأرْواحِ الـكَثِيرَةِ — الّتى وُزِّعَتْ عَلَى أفْرادِ الْحيواناتِ — أشْبَهُ بماءٍ واحِدٍ ، تَفَرَّقَ على أَوانٍ كثيرةٍ ؛ فهُوَ — فى حالةِ تَفَرُّقِهِ وَجَمْعِهِ — شَىْءٌ واحِدٌ . وَإذا كانَ بَعْضُهُ أبْرَدَ مِنْ بَعْضٍ ، فإنَّهُ — فى أَصْلِهِ — واحِدٌ . »

فَكانَ « ابنُ يَقظانَ » يرَى جِنْسَ الْحيوانِ كُلَّهُ واحِدًا ، بهٰذا النَّوْعِ مِنَ النَّظَرِ .

٩ — وَحْدَةُ النَّباتِ

ثمَّ كانَ يَرْجِعُ إلى أنْواعِ النَّبات — على اخْتلافِها — فَيَرَى أَنْواعَها يُشْبِهُ بَعْضُها بَعْضًا — فى الأغْصانِ ، وَالْوَرَق ، والزَّهْرِ ، والثَّمَرِ ، وما إِلَى ذٰلِكَ — فَكانَ يَقِيسُها بِالْحَيَوانِ ، ويَعْلَمُ أَنَّ لَها شَيْئًا واحِدًا اشْتَرَكَتْ فِيهِ ، وَهُوَ لَها بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لِلحَيوانِ ، وأنَّها — بِذٰلك

الشَّيْءِ — واحِدٌ . وكَذٰلكَ أصْبَحَ يَنْظُرُ إلى جِنْسِ النَّباتِ كلِّهِ ، فَيَحكُمُ باتِّحادِهِ ، بِحسَبِ ما يَراهُ مِنِ اتِّفاقِ فِعْلِهِ فى أَنْ يَغْتَذِىَ وَيَنْمُوَ .

١٠ — الحَيَوانُ والنَّباتُ

ثُمَّ كان يَجْمَعُ — فى نَفسِهِ — جِنْسَ الْحَيَوانِ ، وَجِنْسَ النَّباتِ ؛ فَيَرَاهُما جَميعاً مُتَّفِقَيْنِ فِى الاِغْتذاء والنُّمُوِّ ، إلَّا أَنَّ الْحَيَوانَ يَزِيدُ عَلَى النَّباتِ بِفَضْلِ الْحِسِّ وَالإدْراكِ والانتقالِ .

وَرُبَما ظَهَرَ فى النَّباتِ شَىْءٌ شَبيهٌ بالحَيوانِ ، مِثْلُ تَحَوُّلِ وُجُوهِ الزَّهْرِ إلى جِهَةِ الشَّمْسِ ، وَتَحرُّكِ عُرُوقِهِ إلى جِهةِ الْغِذاء ، وأشباهِ ذٰلك .

فَظَهَرَ لَهُ — بهٰذا التَّأَمُّلِ — أنَّ فِى النَّباتِ والْحَيوانِ شيْئاً واحدًا مُشْتَرَكًا بَيْنَهما ، هُوَ فى أَحَدِهما : أَتَمُّ وَأَكْمَل ، وَفِى الآخَرِ : قَدْ عاقَهُ عائِقٌ ، ومَنَعَهُ مانِعٌ . وأَنَّ ذٰلكَ بِمَنْزِلَةِ ماءٍ واحدٍ ، قُسِّمَ إلى قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُما جامدٌ ، والآخَرُ سَيَّالٌ .

وبذٰلكَ يَرَى « ابنُ يَقظانَ » أنَّ الحَيوانَ ، والنَّباتَ : مُتَّحدانِ .

١١ — خَصائِصُ الْجَمادِ

ثمَّ يَنْظُرُ « ابنُ يَقظانَ » إلى الأَجْسامِ الَّتى لا تُحِسُّ ولا تَتَغذَّى ولا

تَنْمُو ؛ ويُطيلُ تأمُّلَهُ فى تلكَ الأجْسامِ — مثلِ الْحِجارَةِ ، وَالترابِ ، والماء ، والهَواء ، واللَّهَبِ — فيَرَى أنّها أجْسامٌ مُقَدَّرٌ لَها طُولٌ وعَرْضٌ وعُمْقٌ ، وأنّها لا تَخْتَلِفُ ، إلّا أنَّ بَعْضَها ذُو لوْنٍ ، وَبَعْضَها لا لَوْنَ لهُ ، وَبَعْضَها حارٌّ ، وَبَعْضَها باردٌ ، وما إلى ذلكَ مِنْ وُجُوهِ الِاخْتلافِ .

وكانَ يَرَى أنَّ الْحارَّ مِنْها : يَصيرُ بارِدًا ، والْبارِدَ : يَصيرُ حارًّا . وكان يَرَى الماءَ : يَصيرُ بُخارًا ، والْبُخارَ : يَصيرُ ماءً ؛ والْأَشْياءَ الْمُحْتَرِقة : تَصيرُ جَمْرًا ورَمادًا ، وَلَهيبًا ودُخانًا ، والدُّخانَ — إذا لاقَى فى صُعُودِه حَجَرًا — انْعَقَدَ (جَمَدَ) فِيهِ ، وصارَ بِمَنْزِلةِ سائِرِ الْأشْياء الْأرْضِيَّةِ .

فيَظْهَرُ لهُ — بهٰذا التَّأَمُّلِ — أنَّ جَميعها شَيْءٌ واحِدٌ فى الْحقيقةِ .

وعَرَفَ أنَّها — عَلَى كَثْرَةِ أشكالها ، وتَعدُّدِ صِفاتها — تَلْتَقى فى أوْصافٍ عامَّةٍ ؛ وذلكَ كما يَلْتَقى الحيَوانُ والنَّباتُ ، عَلَى ما لَحِقَهما منَ الْكَثْرَة ، والتَّنَوُّعِ ، والِاخْتلافِ .

١٢ — خصائصُ عامَّة

وبَقِيَ « ابنُ يقظانَ » — بِحُكمِ هٰذهِ الحالَةِ — مُدَّةً . ثم إنَّهُ تأمَّل جميعَ الأجْسامِ — حَيِّها وجَمادِها — فرَأَى أنَّ كلَّ واحدٍ منْها لا يخْلُو مِنْ أحدِ أمرَيْنِ : إمَّا أن يتَحرَّكَ جهةَ الْعُلُوِّ ، مثلَ الدُّخانِ واللَّهَبِ ، ومِثْلَ الْهواءِ إذا حَصَلَ تَحْت الْماء ، وإمَّا أنْ يتَحرَّكَ إلى الجهَةِ الْمُضادَّةِ لتلك — وهيَ جهةُ السُّفْلِ — مثلَ الْماء ، وأجزاءِ الأرْضِ ، وأجزاءِ الْحيوانِ والنَّباتِ . ورَأَى أنَّ كلَّ جسمٍ — من هٰذهِ الأجسامِ — لَنْ يعْرَى (لَنْ يَخْلُصَ) عن هاتيْنِ الْحركَتَيْنِ ، وأنَّهُ لا يَسْكُنُ إلَّا إذا منعهُ مانعٌ يَعُوقُهُ عَنْ طَريقهِ مِثْلُ الْحَجَرِ النَّازِلِ : يُصادِفُ وَجْهَ الأرْضِ صُلْبًا ؛ فلا يُمْكِنُهُ أنْ يَخْتَرِقَهُ (يَنْفُذَ مِنْهُ ، وَيَنْزِلَ فيه) ، ولوْ أمكنهُ ذٰلكَ لَما انْثَنَى (لو اسْتَطاعَ النفاذَ فيه لَما امْتَنَعَ) عن حَرَكَتِهِ ، فِيما يَظْهَرُ .

ولذٰلكَ ، إذا دَفَعْتَهُ وَجَدْتَهُ يَتحامَلُ عليكَ مائِلًا إلى جهةِ السُّفْلِ ، طالبًا لِلنُّزُولِ ، وكَذٰلكَ الدُّخانُ — في صُعودِهِ — لا يَنْثَني إلَّا أَنْ تُصادِفَهُ قُبَّةٌ صُلْبَةٌ تَحْبِسُهُ ؛ فَحِينئذٍ يَنْعَطِفُ (يَميلُ) يَمِينًا وشِمالًا ،

ثم إذا تَخَلَّصَ من تلك ٱلْقُبَّةِ خَرَقَ ٱلْهَوَاءِ صاعِدًا ؛ لأنَّ ٱلْهَوَاءَ لا يُمْكِنُه أن يَحْبِسَهُ .

* * *

وَكان « ابنُ يَقظانَ » يَرَى أَنَّ الْهواءَ إذا مُلِئَ بِهِ زِقٌّ (سِقاءٌ ، وهُو وِعاءٌ مِنَ الْجِلْدِ) ، وَرُبِطَ ، ثمَّ غُوِّصَ تَحْتَ الْماءِ ؛ طَلَبَ الصُّعُودَ وَتَحامَلَ عَلَى مَنْ يُمْسِكُهُ تَحْتَ الماءِ ، وَلا يَزالُ يَفعلُ ذٰلكَ حَتَّى يُوافِقَ سَطْحَ الْماءِ ، ويُشْرِفَ (يَرْتفعَ) عَلَى مَوْضِعِ الْهواءِ . ومتى تَمَّ خُرُوجُهُ من تَحْتِ الْماءِ ، فإنهُ يَسْكُنُ — حينئذٍ — وَيَزُولُ عَنه ذٰلكَ التّحامُلُ والْمَيْلُ إلى جهةِ الْعُلُوِّ الَّذى كان يوجَدُ منه قبل ذٰلكَ .

١٣ — خصائِصُ الْماءِ

وَأَدَّى ذٰلكَ بِـ « ابْنِ يَقظانَ » إلى التَّأَمُّلِ فِي الْماءِ . فماذا رأَى ؟

(١) رأَى أَنَّهُ إذا خُلِّيَ وما تَقْتَضِيهِ صُورَتُهُ ، ظهرَ منهُ بَرْدٌ مَحْسُوسٌ ، وَطلبَ النُّزُولَ إلى أَسْفَلَ .

(٢) فإذا سَخَنَ الْماءُ — إمَّا بالنَّارِ ، وإمَّا بِحَرارةِ الشَّمْسِ — زالَ عنهُ الْبَرْدُ أَوَّلًا ، وَظلَّ باقِياً فيهِ طَلَبُ النُّزُولِ إلى أَسْفَلَ .

(٣) فإذا اشْتَدَّ تَسْخِينُهُ، زالَ عنهُ طَلَبُ النُّزُولِ إلى أسفلَ، وصار يَطْلُبُ الصُّعودَ إلى فَوْقَ.

وثَمَّةَ (هُناكَ) تَزُولُ عنهُ البُرُودَةُ، وطلَبُ النُّزُولِ إلى أسفلَ؛ وهُما الوَصْفانِ اللَّذانِ امْتازَ بهما الماءُ.

وَعَجِبَ «ابْنُ يَقظانَ» مِمَّا وَصلَ إليهِ مِنَ النَّتائِجِ الَّتى هَداهُ إليها تَأَمُّلُهُ وَمُلاحَظَتُهُ؛ فقد رأَى حينئذٍ أنَّ الماءَ — بَعْدَ أن اتَّخَذَ لَهُ صُورةً جديدةً أُخْرَى، لَمْ تكُنْ له قبلَ التَّسْخينِ — صَدَرَ عنهُ بها أفعالٌ جديدةٌ أُخَرُ، لم تكُنْ تَصْدُرُ عنهُ وهُوَ بصُورتِهِ الأُولى؛ فأصبحَ — بَعْدَ السُّخُونَةِ — يَطْلُبُ الصُّعودَ، وقد كانَ — فى حالِ البُرُودَةِ — يطلُبُ النُّزولَ.

١٤ — مَصْدرُ الوُجُودِ

فَعَلِمَ «ابنُ يَقْظانَ» — حينئذٍ — أنَّ كلَّ حادثٍ: لا بُدَّ له مِنْ مُحْدِثٍ. فارْتَسَمَ (مَثَلَ وتَصَوَّرَ) فى نَفْسِهِ — بهٰذا الاعْتِبارِ — فاعِلُ الصُّوَرِ.

ثُمَّ إنَّهُ تَتَبَّعَ الصُّوَرَ الَّتى كانَ قَدْ عَلِمَها قَبْلَ ذٰلِكَ: صُورَةً صُورَةً؛ فرَأَى أنَّها كلَّها حادِثة، وأنَّها لا بُدَّ لَها مِنْ فاعِلٍ.

ثمَّ إنَّهُ نَظرَ إلى ذَواتِ الصُّوَرِ؛ فَلَمْ يَرَ إلَّا أنَّها أجْسامٌ مُسْتَعِدَّةٌ لأَنْ

تَصْدُرَ عَنْها الأفعالُ؛ مِثْلُ الماء: فإنهُ إذا أفْرَطَ وَزادَ عَلَيْهِ التَّسْخِينُ اسْتَعدَّ لِلْحَرَكَةِ إلى فوْقُ.

فَصُلُوحُ الجِسْمِ لِبَعضِ الحَرَكاتِ — دُونَ بَعْضٍ — هُوَ اسْتِعدادُهُ الخاصُّ لِقَبُولِها. ولاحَ لِـ «ابنِ يَقظانَ» مثلُ ذلكَ في جَمِيعِ الصُّوَرِ؛ فَتَبَيَّنَ لَهُ أنَّ الأفعالَ الصّادِرَةَ عَنْها: لَيْسَتْ — في الحقيقةِ — لها، وإنَّما هِيَ لِفاعِلٍ أكْسَبَها الأفعالَ المَنْسُوبَةَ إليها.

وَهٰكذا اهْتَدَى — بِذَكائهِ، وَحُسْنِ الْتِفاتِهِ، ودِقَّةِ مُلاحَظَتِه — إلى الإيمانِ باللهِ: خالقِ الخَلْقِ، وَمَصْدَرِ الوُجُودِ.

الفصل الخامس

١ – بَعْدَ الْخَمْسِينَ

وَما زالَ « ابْنُ يَقظانَ » يُنْعِمُ (يُبالِغُ) فى النَّظرِ ، ويُمْعِنُ (يَزِيدُ) فِي الفِكْرِ ، ويُطِيلُ التَّأَمُّلَ ، حتَّى بَلغَ مَرْتَبةَ الفلاسفةِ . وَلَمْ يَبْلُغْ حالتَهُ تلكَ ، حتى أنافَ (أَشْرَفَ وَزادَ) عَلَى الْخَمْسِينَ . وحينَئذٍ انْتقلَتْ حياتُهُ مِنَ الْعُزْلَةِ (الوَحْدَةِ) إلى الاتِّصالِ . وأَتاحَ (يَسَّرَ) لهُ حُسْنُ الْحَظِّ مُصاحبَةَ عالِمٍ تَقِيٍّ ، وَرِعٍ (مُبْتَعِدٍ عَنِ الْمعاصِي) ، كريمِ النَّفس ، نبيلِ الْخُلُقِ ؛ فكانَ لهُ فى حَياةِ « ابْنِ يَقظانَ » أَكْبَرُ الْأثرِ ، كما تَرَى فيما يَلِي مِنْ حوادثِ هٰذه القصةِ الْمُعْجِبَةِ .

٢ – الصَّدِيقانِ

ذَكَروا : أَنَّ جَزِيرةً قَرِيبةً مِن الْجَزِيرةِ التى نَشَأَ فيها « حَيُّ ابْنُ يَقظانَ » كانَ أهلُها يَعْبُدُونَ اللهَ – سُبحانَهُ – ويُطِيعونَهُ . وقدْ ذاعَتْ فى تلكَ الْجزيرَةِ (انْتشَرَتْ) تعاليمُ الدِّينِ الصَّحيحَةُ ، وَآمَنَ سُكَّانُها

بِما جاء بِهِ الأنبياء والرُّسُلُ ، صلواتُ اللهِ عليهمْ .

فما زالَ الدِّينُ ينْتَشِرُ بتلكَ الْجزيرةِ ، وَتقْوَى أواصِرُهُ (روابِطُهُ) ، حتى قامَ به مَلِكُها ، وحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْتزامِهِ وَالأخْذِ بِهِ .

وكانَ قَدْ نَشأَ بتلكَ الْجَزيرَةِ فَتَيانِ مِنْ أهْلِ الفَضْلِ والرَّغْبةِ فى الْخَيْرِ ؛ يُسَمَّى أحدُهما : « أسالَ » ، والآخَرُ : « سَلامانَ » . فتَلَقَّيا ذٰلِكَ الدِّينَ ، وقَبِلاهُ أحْسَنَ قَبُولٍ ، وأَخَذا نَفْسَيْهِما بِالْتِزامِ جميعِ شَرائِعِهِ ، والْمُواظَبَةِ عَلَى تنفيذِ أوامِرِهِ ، وَالِانْتِهاءِ (الكَفِّ والِاجْتنابِ) بنَواهِيهِ وزَواجِرِه ، وَجَعَلا يَتفهَّمانِ دَقائِقَهُ بِعِنايةٍ نادِرَةٍ .

فأمَّا « أسالُ » فكانَ أشدَّ غَوْصًا عَلَى الْباطِنِ وأَعْمَقَ ، وأكْثَرَ تَفَهُّمًا لِأسْرارِ الدِّينِ ودَقائِقِهِ الْخَفِيَّةِ .

وَأَمَّا « سَلامانُ » صاحِبُهُ ، فكانَ أكْثَرَ احْتِفاظًا بِظاهِرِ أَلْفاظِ الدِّينِ ، وَأَشَدَّ بُعْدًا عنِ التَّعَمُّقِ فى فَهْمِ أَسْرارِهِ ، وكانَ لا يُطيلُ الفِكْرَ والتَّأمُّلَ .

وكلاهُما مُجِدٌّ فى الْعِبادَةِ ، مُخْلِصٌ لِدِينِهِ ، دَقيقٌ فى مُحاسَبَةِ نَفْسِهِ ، ومُجاهَدَةِ أهْوائِها ، وَمُحارَبَةِ نَزَعاتِها الضَّارَّةِ .

وكان « أسالُ » يُؤْثِرُ الْعُزْلَةَ (يَخْتارُها) ، وَيَميلُ إِلَى الْبُعْدِ عَن النَّاس ، وَيَرَى أَنَّ فى ذٰلِكَ الْفَوْزَ والنَّجاةَ . وَلٰـكِنَّ « سَلامانَ » كانَ يَرَى فى ذٰلِكَ رَأْيًا آخَرَ ؛ فَهُوَ يُؤْثِرُ الْمُعاشَرَةَ وَمُلازَمَةَ الْجَماعَةِ ، ويَرَى فى ذٰلِكَ تَمامَ سَــعادَتِهِ ، لِأَنَّهُ يُتيحُ له الْفُرْصَةَ فى إرْشاد جَمْهَرَتِهِمْ (جَماعَتِهِمْ) إِلَى طَريقِ الْخَيْرِ ، وتَحْذيرِهِمْ عَواقِبَ الشَّرِّ ، وإنارَةِ سَبِيلِ الْهُدَى ، وإِخْراجِهِمْ مِنَ الْغَيِّ والضَّلال .

أَمَّا « أسالُ » فَقَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِالْعُزْلَةِ ؛ لِما كانَ فى طِباعِهِ مِنْ دَوامِ الْفِكْرَةِ ، ومُلازَمَةِ الْعِبْرَةِ ، والْغَوْصِ عَلَى الْمَعانِى .

وأَكْثَرُ ما كانَ يتأَتَّى لهُ أَمَلُهُ من ذٰلِكَ : بالِانْفِرادِ .

وتَعَلَّقَ « سَلامانُ » بِمُلازَمَةِ الْجَماعَةِ ، وأَخَذَ نَفْسَهُ بِهٰذا الْمَذْهَبِ ؛ لِما كانَ فى طِباعِهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ التَّعَمُّقِ ، والِانْصِرافِ إلى التَّصَفُّحِ (التَّأَمُّلِ والتَّعَرُّفِ) . فكانَتْ مُلازَمَةُ الجماعَةِ عِنْدَهُ مِمَّا يَدْرَأُ الْوَسْواس عَنْهُ وَيَدْفَعُهُ . ويُزِيلُ الظُّنُونَ الْمُعْتَرِضَةَ ، ويُعِيذُهُ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ وَساوِسِهِمْ ونَخَساتِهِمْ ومَكائِدِهِم .

٣ – سَبَبُ الْفُرْقَةِ



وكانَ اخْتِلافُ « أَسالَ » و « سَلامانَ » فى هٰذا الرَّأْيِ : سَبَبَ افْتِراقِهِما . وَلَمَّا سَمِعَ « أَسالُ » بِتلكَ الْجَزِيرَةِ الَّتى ذَكَرْنا أَنَّ

« حَيَّ بْنَ يَقظانَ » قَدْ حَلَّ بها ، وَعَرَفَ ما فِيها مِنَ الْخِصْبِ والهَواءِ الْمُعْتَدِلِ ، ورَأى أنَّ الِانفرادَ بها يَتأتّى لِمُلْتَمِسِهِ ، ويَتيسَّرُ لِطالِبِهِ ؛ أجْمَعَ أمْرَهُ (عَزَمَ وقرَّرَ) أنْ يَرْتَحِلَ إليْها ، ويَعْتَزِلَ النَّاسَ بِها ، بَقِيَّةَ عُمُرِه .

٤ — مَقْدَمُ « أسالَ »

فجمعَ « أسالُ » ما كانَ لهُ منَ الْمالِ ، واكْتَرَى (اسْتَأْجَرَ) ببعضِهِ سَفِينَةً تَحْمِلُهُ إلى تلكَ الجَزِيرةِ ، وفرَّقَ ما بقِيَ مِنْ مالِهِ عَلَى الْمساكِينِ ، ووَدَّعَ صاحبَهُ « سَلامانَ » ، ورَكِبَ مَتْنَ الْيَمِّ (ظَهْرَ الْبَحْرِ) ؛ فحَمَلَهُ الْمَلَّاحُونَ (النُّوتِيُّونَ) إلى تلكَ الْجَزِيرةِ ، وَوَضَعُوهُ بِساحِلِها ، وانْفَصَلُوا عنهُ (ترَكُوه) .

٥ — عَيْشُ النُّسَّاكِ

وَبَقِيَ « أسالُ » بتلكَ الْجزيرةِ ، يعْبُدُ اللهَ — عزَّ وجَلَّ — وَيُعَظِّمُهُ وَيُقَدِّسُهُ ، ويفكِّرُ في أسْمائِهِ الْحُسْنَى ، وصِفاتِهِ الْعُلْيا ؛ فلا ينقطِعُ خاطِرُهُ ، ولا تتكدَّرُ فِكْرَتُهُ .

وإذا احْتاجَ إلى الْغِذاء، تناوَلَ — من ثَمَراتِ تلك الْجزيرةِ وصَيْدِها — ما يَسُدُّ به جَوْعَتَهُ. وأقامَ — عَلَى تلك الحالِ — مُدَّةً، وهو فى أتَمِّ غِبْطَةٍ، وأعظمِ أُنْسٍ، بِعِبادةِ رَبِّهِ، ومُناجاةِ خالقِهِ.

وكان يُشاهِدُ — كُلَّ يَوْمٍ — من أَلْطافهِ، ومزايا تُحَفِهِ، وتَيْسِيرِهِ عليه فى مَطالبهِ وغِذائهِ: ما يُثَبِّتُ يَقِينَهُ، ويُقِرُّ عَيْنَهُ.

وكان «حيُّ بنُ يقظانَ» — فى تلكَ الْمُدَّةِ — شديدَ الاستِغْراقِ فى أفكارهِ الفلْسفيَّةِ، وتأمُّلاتهِ العميقة. فكان لا يَبْرَحُ مَغارَتَهُ إلَّا مَرَّةً فى الأُسْبوعِ، لِتناوُلِ ما سَنَحَ (ما ظَهَرَ لهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَظْفَرَ بهِ) منَ الغذاءِ. فلذٰلكَ لَمْ يعثُرْ عليه «أسالُ» بِأَوَّلِ وَهْلَةٍ (بأَوَّلِ الأَمْرِ)؛ بل كان يَطُوفُ بأكْنافِ تلكَ الْجزيرةِ (نَواحِيها)، ويَسِيحُ فى أرْجائِها؛ فلا يَرَى إنْسِيًّا، ولا يُشَاهِدُ أَثَرًا، فيزيدُ بذٰلكَ أُنْسُهُ، وتتبَسَّطُ نفسُهُ، لِفَرْطِ غَرامِهِ بالْعُزْلَةِ، وَإيثارِهِ (اخْتِيارِهِ) لِلانْفِرادِ، وَتناهِيهِ (تَمادِيهِ فى بُلوغِ الْغايةِ الْبَعيدَةِ) فى طَلَبِ الْبُعْدِ عنِ النَّاسِ.

٦ — لِقـــاءٌ فُجائِى

واتَّفَقَ — فى بَعْضِ تلكَ الأوْقاتِ — أَنْ خرَجَ «حَيُّ بنُ يقظانَ»

لِالْتِماسِ غِذائه ، وكانَ « أسالُ » قد أَلَمَّ (مَرَّ) بتلك الْجِهَةِ ؛ فوقَع بَصَرُ كلٍّ واحدٍ منهما عَلَى الآخَرِ .

فأمَّا « أسالُ » فلم يَرْضَ إلَّا أن يكُونَ منَ العُبَّادِ الْمُنْقَطِعِينَ ، وَقَدْ وَصَلَ إلى تِلكَ الْجَزِيرَةِ لِطلَبِ الْعُزْلَةِ عنِ النَّاسِ ؛ فَخَشِيَ — إنْ هُوَ تَعَرَّضَ لِـ « ابنِ يقْظانَ » ، وتعرَّفَ بِهِ — أَنْ يكونَ ذٰلك سبباً لِفَسادِ حالِهِ ، وَعائِقاً بينهُ وبين أَمَلِهِ .

وَأَمَّا « حَيُّ بنُ يقظانَ » فلَمْ يَدْرِ : مَنْ هُوَ « أسالُ » ؟ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى صُورةِ شَيْءٍ من الْحيواناتِ التي كان قد عايَنَها قبلَ ذٰلك .

٧ — فِرارُ « أسالَ »

وَكانَ عَلَى « أَسالَ » ثِيابٌ من شَعَرٍ وصُوفٍ ؛ فظنَّ « ابْنُ يقظانَ » أنَّها لِباسٌ طبيعيٌّ أَنْبَتَهُ جِسْمُهُ ؛ فَوَقَفَ يَتَعَجَّبُ منه مَلِيّاً (وَقْتاً) ، وَجَرَى « أَسالُ » — فارًّا منهُ — خِيفَةَ أَن يَشْغَلَهُ عنْ حالهِ .

فاقْتَفَى « ابْنُ يَقْظانَ » أثَرَه (تَبِعَهُ) ، لِما كان فى طِباعِهِ منَ الْبَحْثِ عن حقائقِ الْأشياء . فلمَّا رآهُ يَشْتدُّ فى الْهرَبِ ، تَباطأَ « ابْنُ يَقْظانَ » ، وَخنَسَ عنه



(تأخَّرَ)، وَتوارَى له (استَخْفَى عَنْ ناظِرِهِ) ؛ حتى ظَنَّ « أسالُ » أنَّ صاحبَهُ الَّذى يَقْتَفِيهِ : قدِ انْصرفَ عنهُ ، وَتباعدَ من تلكَ الْجهةِ .

٨ – وَرَعُ « أسالَ »

فَشَرَعَ «أسالُ» فِى الصَّلاةِ والْقراءةِ ، والدُّعاء ، والْبُكاء ، وَالتَّضَرُّعِ (الِابْتِهالِ إِلَى اللهِ والتَّذَلُّلِ لَهُ) ، حتَّى شَغَلَهُ ذٰلكَ عن كلِّ شَىْءٍ . فجعَلَ « حَىُّ بْنُ يقظانَ » يَقْتَرِبُ منهُ قَلِيلًا – و « أسالُ » لا يشعُرُ بِهِ – حتَّى دَنا منهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ قِراءَتَهُ ، وتَسْبِيحَهُ ، وَبُكاءَهُ ، وَيُشاهِدُ خُضُوعَهُ ؛ فسَمِعَ صَوْتًا حَسَنًا ،

وَحُرُوفًا مُنظَّمَةً ، لَمْ يَعْهَدْ مِثْلَها مِنْ أَصْنافِ الْحَيَوانِ . وَنَظَرَ إِلَى أَشْكالِ هٰذا الْحَىِّ الْغَرِيبِ ، وتَخْطِيطِه ؛ فَرَآهُ عَلَى صُورَتِهِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الثِّيابَ الَّتِى عَلَيْهِ لَيْسَتْ جِلْدًا طَبِيعِيًا ؛ وإِنَّما هِىَ لِباسٌ مُتَّخَذٌ مِثْلُ لِباسِهِ هُوَ .

ولَمّا رَأَى بُكاءَهُ ، وحُسْنَ خُشُوعِهِ ، وتَضَرُّعَهُ ، لَمْ يَشُكَّ فِى أَنَّهُ مِنَ الذَّواتِ الْعارِفَةِ بِالْحَقِّ . فَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ ، وأَرادَ أَنْ يَرَى ما عِنْدَهُ ، وما الَّذِى أَوْجَبَ بُكاءَهُ وتَضَرُّعَهُ ؟

٩ — مُطـــارَدَةٌ

فَزادَ « حَىُّ بْنُ يَقظانَ » فِى الدُّنُوِّ والْقُرْبِ ، حَتَّى أَحَسَّ بِهِ « أَسالُ » ؛

فاشْتدَّ في العَدْوِ ، واشْتدَّ « حَيُّ بْنُ يَقْظانَ » في أثرِهِ ؛ حتَّى الْتَحَقَ بِهِ ، لِما كانَ أعْطاهُ اللهُ مِنَ القُوَّةِ ، والقُدْرَةِ عَلَى السَّبْقِ . فالْتزمَهُ (اعْتنقهُ) ، وَقبَضَ عليْهِ ، ولَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ البَراحِ (الِانْتِقالِ والتَّحَوُّلِ) . فلمَّا نظرَ إليْهِ « أسالُ » وَهُوَ مُكْتَسٍ بِجُلُودِ الحَيَوانات ذَواتِ الأَوْبارِ ، وشَعَرُهُ قدْ طالَ حتَّى جَلَّلَ (غطَّى وسَتَرَ) كَثِيرًا مِنْهُ ، ورَأى ما عِنْدَهُ منَ العَدْوِ (الجَرْي) وقوَّةِ البَطْشِ والفَتْكِ والعُنْفِ ؛ فَرِقَ (خافَ) مِنْهُ فَرَقًا شَديدًا ، وَجَعَلَ يَسْتَعْطِفُهُ (يَسْألُهُ أنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِ ويَرِقَّ لهُ) ، ويَرْغَبُ إليْهِ بِكلامٍ لا يَفْهَمُهُ « حَيُّ بْنُ يَقْظانَ » ، ولا يَدْرى : ما هُوَ ؟ غيْرَ أنَّهُ يُمَيِّزُ فيهِ شَمائِلَ الجزَعِ (طباعَ القَلَقِ وعَدَمِ الصَّبْرِ وسُرْعةِ الحُزْنِ) . فكانَ « ابنُ يقظانَ » يُؤْنِسُهُ بِأَصْواتٍ كانَ قدْ تَعلَّمها مِنْ بَعْضِ الحَيَواناتِ ، ويَرْبِتُ كَتِفَهُ (يُلاطِفُهُ ، ويَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى كَتِفِهِ — في رِفْقٍ — تَسْكِينًا لَهُ) ، ويُمِرُّ يَدَهُ عَلَى رأْسِهِ ، ويَمْسَحُ أعْطافَهُ (ما يَثْنِيهِ مِنْ جَنْبَيْهِ) ، وَيتَمَلَّقُ إلَيْه (يتَوَدَّدُ ويتَحَبَّبُ) ، ويُظْهِرُ البِشْرَ والفَرَحَ بِهِ ؛ حتَّى سَكَنَ جَأْشُ « أَسالَ » واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، (والجَأْشُ : فَزَعُ القَلْبِ) ، وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُرِيدُ بِهِ سُوءًا .

١٠ — دَهْشَةُ الغَرِيبَيْنِ

وكانَ « أسالُ » — لِمحَبَّتِهِ فى عِلْمِ التَّأويلِ (التَّعَرُّفِ والتَّفْسِيرِ) — قَدْ تَعَلَّمَ قديمًا أَكْثَرَ الأَلْسُنِ ، ومَهَرَ فِيها فَجَعلَ يُكلِّمُ « حَىَّ بْنَ يقظان » ، ويُسائِلُهُ عنْ شَأْنِهِ بِكلِّ لِسانٍ يَعْلَمُهُ ، ويُعالِجُ إفْهامَهُ ؛ فلا يَسْتطيعُ . وكان « حَىُّ بْنُ يَقظانَ » — فى ذٰلِكَ كلِّهِ — يتعَجَّبُ مِمَّا يَسْمَعُ ، ولا يَدْرى : ما هُوَ ؟ غيْرَ أَنَّهُ يُظْهِرُ لَهُ الْبِشْرَ والقَبولَ ؛ فاسْتَغْرَبَ كلُّ واحِدٍ مِنْهُما أَمْرَ صاحِبِهِ .

١١ — طعامُ « أسالَ »

وكانَ عِنْدَ « أسالَ » بَقِيَّةٌ مِنْ زادٍ ، كان قَدِ اسْتَصْحَبهُ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْمَعْمورَةِ ! فقَرَّبَهُ إلى « حَىِّ بنِ يَقْظان » ؛ فلَمْ يَدْرِ : ما هُوَ ؟ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شاهَدَهُ قَبْلَ ذٰلِكَ . فأَكَلَ منهُ « أسالُ » ، وأشارَ إلى صاحبِهِ لِيَأْكُلَ . فتفكَّرَ « حَىُّ بْنُ يَقْظانَ » فى هٰذا ، ولَمْ يَكُنْ يَدْرى أَصْلَ ذٰلكَ الشَّىْءِ الَّذِى قدَّمهُ لهُ « أسالُ » ، ولَمْ يَعْرِفْ : ما هُوَ ؟ وهلْ يَجُوزُ لهُ

تناوُلُهُ، أمْ لا ؟ فامْتَنَعَ – بادِئَ الأَمْرِ – عَنِ الأَكْلِ. ولَم يزَلْ «أسالُ» يُرَغِّبُ إليهِ ويَسْتَعْطِفُهُ (يَسْتَمِيلُهُ).

وكانَ «حَىُّ بْنُ يَقظانَ» قدْ أُولِعَ بـ «أسالَ»، وشُغِفَ بهِ حُبًّا؛ فَخَشِىَ – إنْ دامَ عَلَى امْتِناعِه – أنْ يُوحِشَهُ ويُشْعِرَهُ بِغَرابَتِهِ. فَأَقْدَمَ عَلَى ذٰلكَ الزّادِ، وأَكلَ منهُ. فلمَّا ذاقَهُ واسْتَطابَهُ، بَدا لهُ سُوءُ ما صَنَعَ مِن نَقْضِ عُهودِه، وخَشِىَ أنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ، بَعْدَ أنْ أَكلَ مِن ذٰلكَ الطَّعامِ الّذى لَمْ يَأْلَفْهُ مِنْ قَبْلُ. ونَدِمَ عَلَى ما فعلَهُ، وأرادَ الانْفِصالَ عَنْ «أسالَ»، والإِقْبالَ عَلَى شَأْنِهِ مِنْ طَلَبِ الرُّجوعِ إلى مُقامِهِ الكَرِيمِ. ولٰكِنَّهُ كان شَديدَ الرَّغْبَةِ فى تَعَرُّفِ حَقيقةِ هٰذا الغَرِيبِ؛ فتَرَيَّثَ فى أمْرِه (تمهَّل)، ورأَى أنْ يُقِيمَ مَعَ «أسالَ» وقتًا قصيرًا؛ حتَّى يَقِفَ عَلَى حقيقةِ شأْنِهِ، ويتَعرَّفَ جَلِيَّةَ أمْرِه. فَإذا تَمَّ لهُ ذٰلكَ، عادَ إلى طَرِيقتهِ الأُولى، وانْصرفَ إلَى تَأمُّلاتهِ وتَفْكيرِهِ، دُونَ أنْ يَشْغَلَهُ شاغِلٌ. وثَمَّةَ رَأَى حاجَتَهُ إلى مُصاحبَةِ «أسالَ»؛ فقرَّرَ – فى نفْسِه – مُلازَمَتَهُ، حتَّى يُدْرِكَ طِلْبَتَهُ (يَنالَ قَصْدَهُ).

١٢ — مُعلِّمُ « ابْنِ يَقْظانَ »

وَلمَّا رَأَى « أَسالُ » أيضًا أنَّ صاحِبَهُ « ابْنَ يَقْظان » لا يتكلَّمُ ، أَمِنَ عَلَى دِينِهِ مِنْ غَوائِلِهِ (شُرُورِهِ وَفَتَكاتِهِ الْمُؤْذِيَةِ) ، وَرَجا أَنْ يُعَلِّمَهُ الْكلامَ والعِلْمَ والدِّينَ ؛ فيكُونَ لهُ بذٰلكَ أعْظَمُ أجْرٍ وَزُلْفَى (قُرْبَى) عِنْدَ اللهِ . فَشَرَعَ « أسالُ » فى تَعْليمِ صاحِبِهِ الْكلامَ أَوَّلًا ، بأَنْ كانَ يُشِيرُ لهُ إلى أعْيانِ الْمَوْجُوداتِ ، وَيَنْطِقُ بأَسْمائِها ، وَيُكَرِّرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِ ، ويَحْمِلُهُ عَلَى النُّطْقِ ؛ فَيَنْطِقُ بها مُقْتَرِنًا بالْإشارَةِ ، حَتَّى عَلَّمَهُ الأَسْماءَ كُلَّها .

وَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذٰلِكَ ، شَرَعَ يُدَرِّجُهُ قَليلًا قليلًا ، حَتَّى تَكَلَّمَ « ابْنُ يَقْظانَ » فى أَقْرَبِ مُدَّةٍ . فَجَعَلَ « أسالُ » يَسْأَلُ صاحِبَهُ عَنْ شأْنِهِ ، ومِنْ أَيْنَ صارَ إلَى تِلكَ الْجَزِيرةِ ؟ فَأَعْلَمَهُ « حيُّ بْنُ يَقْظانَ » أَنَّهُ لا يَدْرِى لِنَفْسِهِ ابْتِداءً ، وَلا أَبًا وَلا أُمًّا ، أَكْثَرَ مِنَ الظَّبْيَةِ الَّتى رَبَّتْهُ . وَوَصَفَ لهُ شأْنَهُ كلَّهُ ، وكَيْفَ تَرَقَّى بِالْمَعْرِفَةِ ، حَتَّى وصَلَ إلَى تلكَ الْمَرْتَبَةِ الْعالِيَةِ مِنَ الْبَحْثِ والْإدْراكِ .

فَلَمَّا سَمِعَ « أسالُ » مِنهُ وصْفَ تلكَ الْحقائقِ ، رَأَى مِنْ حُسْنِ فَهْمِهِ

ما أدْهَشَهُ ، ومَلأَ نفسَهُ إعجابًا بِهِ ، ورفَع مكانتَهُ فى عَيْنَيْهِ .

وازْدادَ إيمانُ « أسالَ » ، وقَوِىَ يَقِينُهُ ، وانْفتَحَ بَصَرُ قَلْبِه ، وانْقَدَحَتْ نارُ خاطِرِهِ (اتَّقَدَتْ) ، ولمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مُشْكِلٌ (مُلْتَبِسٌ غَيْرُ واضِحٍ) فى الدِّينِ إلَّا تَبَيَّنَ لهُ ، ولا مُغْلَقٌ فى الشَّرِيعَةِ إلَّا انْفَتَحَ ، ولا غامِضٌ إلَّا اتَّضَحَ ؛ وصارَ مِنْ أُولى الألْبابِ .

وعِنْدَ ذٰلِكَ نَظَرَ إلَى « حَىِّ بْنِ يَقْظانَ » بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ والتَّوْقِيرِ والإجْلالِ ، وتحقَّقَ عِنْدَهُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِياءِ الله الصَّالِحِينَ ؛ الذينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . فالْتَزَمَ خِدْمَتَه ، وَالاقْتِداءَ بِهِ ، والأَخْذَ بِإشارَتِهِ ، وأَصْبَحَ أَصْفَى أَصْفِيائِهِ ، وأَخْلَصَ خُلَصائِهِ ، مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

الفصل السادس

١ — فَضْلُ الشَّرائِع

وَظَلَّ « حَيُّ بْنُ يَقْظانَ » يَسْتَفْصِحُهُ عَنْ أَمْرِهِ وَشأْنِه . فَجَعَلَ « أَسالُ » يَصِفُ لهُ شَأْنَ جَزِيرَتِهِ ، وَما فِيها مِنَ الْعالَمِ ، وكَيْفَ كانَتْ سِيَرُهُم ، وَأَخْبارُ حَياتِهِمُ السَّالِفَةِ ، وشُئُونِهِمُ الْماضِيَةِ — قَبْلَ وُصُولِ الدِّينِ إِلَيْهِمْ — وكيفَ هِيَ الْآنَ بَعْدَ أَنِ اهْتَدَوْا بِنُورِ الدِّينِ . وَوَصَفَ لهُ جَمِيعَ ما وَرَدَ فى الشَّرِيعَةِ مِنْ وَصْفِ العالَمِ الْإِلٰهِيِّ ، والْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، والْبَعْثِ والنُّشُورِ ، والْحِسابِ والْمِيزانِ ، والصِّراطِ . فَفَهِمَ « حَيُّ بْنُ يَقْظانَ » ذٰلك كُلَّهُ ، وَلَمْ يَرَ فيهِ شَيْئاً عَلَى خِلافِ ما شاهَدَهُ فى مُقامِهِ الـكَرِيمِ ؛ فَعَلِمَ أَنَّ الَّذِى جاء بِذٰلِكَ الدِّينِ الْقَيِّمِ نَبِيٌّ أَمِينٌ ، ذُو قُوَّةٍ — عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ — مَكِينٌ . وَأَيْقَنَ أَنَّهُ مُحِقٌّ فى وَصْفِهِ ، صادِقٌ فى قَوْلِهِ ، وأَنَّهُ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّه . فَآمَنَ به وَصدَّقَه ، وشَهِدَ بِرِسالَتِهِ ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ ، وَأَصْبَحَ فى عِدادِ الصَّالِحِينَ الأَخْيارِ .

ثُمَّ جَعَلَ « ابْنُ يَقْظانَ » يَسْأَلُ صاحِبَهُ « أَسالَ » عَمَّا جاء به مِنَ الفَرائِضِ ، وَما فَرَضَهُ عَلَى النَّاسِ مِنَ العِباداتِ . فَوَصَفَ لهُ صاحِبُهُ « أَسالُ » : الصَّلاةَ ، وَالزَّكاةَ ، والصِّيامَ ، والْحَجَّ وما أَشْبَهَها ؛ وشرَحَ لهُ حِكْمَةَ هٰذِهِ الفُرُوضِ

والواجباتِ . فتلقّى ذلك والتزمَهُ، وأخذَ نفسَهُ بأدائهِ؛ امتثالًا للأمرِ الّذى صحَّ عندَهُ صدقُ قائلِه .

٢ — آراء « ابنِ يقظانَ »

ولكنْ بقِىَ فى نفسِ « ابن يقظانَ » أمرٌ كانَ يتعجّبُ منهُ، ولا يدرى وجهَ الحكمةِ فيه. وذلك أنّهُ — فيما فهِمَهُ مِنْ « أسالَ » — رأى النّاسَ يستبيحونَ لأنفسِهِمُ اقتناءَ الأموالِ، والتّوسُّعَ فى المآكلِ؛ حتى تفرّغُوا للباطلِ بالباطلِ، وأعرضُوا عن الحقِّ. وكان رأيُهُ هوَ ألّا يتناولَ أحدٌ شيئًا إلّا ما يُقيمُ به الرّمقَ، ويُمسِكُ الحياةَ. وأمّا الأموالُ فلم تكنْ عندَهُ بمعنًى.

وكان يرَى ما فى الشّرعِ مِنَ الأحكامِ فى أمرِ الأموالِ — كالزّكاةِ وتشعُّبِها، والبيوعِ، والرِّبا، والحدودِ، والعقوباتِ — فكانَ يستغرِبُ ذلك كُلَّهُ، ويَراهُ مفهومًا بالبداهةِ. ويقولُ: إنَّ النّاسَ لوْ فهمُوا الأمرَ علَى حقيقتِه، لأعرضُوا عنْ أباطيلِهِمْ، وأقبلوا علَى الحقِّ، وزهدُوا فى المالِ، ولَمْ يدّخرُوهُ، ولَمْ يتكالبُوا عليه (لَم يُقبلُوا ولَم يحرصُوا)، ولَمْ يحتاجُوا إلى مَنْ يُرشدُهُمْ إلى واجبِ إخراجِ الزّكاةِ منهُ، ولَمْ يُقدمِ السّارقونَ علَى سرقتِه

فتُقْطعَ أيْديهِمْ . وكانَ الّذى أوْقعَهُ فى ذٰلك ، ظَنُّهُ أنَّ النّاسَ — كُلَّهُمْ — ذَوُو فِطْرَةٍ (طَبيعَةٍ) فائقَةٍ ، وأذْهانٍ ثاقِبَةٍ (نافذَةٍ مُتّقِدَةٍ) ، و نُفوسٍ حازِمَةٍ (آخذَةٍ بما تَثِقُ بهِ) . ولم يكُنْ يَدْرى ما هُمْ عليه مِنَ الْبَلادَةِ ، والنَّقْصِ ، وسُوءِ الرَّأْى ، وضَعْفِ الْعَزْمِ ، وأنَّهُمْ كالْأنعامِ (كالْإبلِ والبَقَرِ والْغَنَمِ) ؛ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلًا .

٣ — مُفاوَضَةُ « أسالَ »

فَلَمَّا اشْتَدَّ إشْفاقُ « ابنِ يَقْظانَ » عَلَى النّاسِ ، وَطَمِعَ أنْ تَكُونَ نَجاتُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ ، حَدَثَتْ لهُ نِيَّةٌ فى الوُصُولِ إلَيْهِمْ ، وَإيضاحِ الْحَقِّ لَدَيْهِمْ ، وَتَبْيِينِهِ . فَفاوَضَ فى ذٰلك صاحِبَهُ « أسالَ » ، وسَأَلَهُ : هَلْ تُمْكِنُهُ حِيلَةٌ فى الوُصُولِ إلى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؛ لِيُرْشِدَ النّاسَ إلى طَريقِ النَّجاةِ ، ويَهْدِيَهُمْ إلى سَواءِ السَّبيلِ ؟ فَأَعْلَمَهُ « أسالُ » بما عَلَيْهِ سَوادُ النّاسِ (عامَّتُهُمْ وكَثْرَتُهُمْ) ، مِنْ نَقْصِ الفِطْرَةِ ، والْإعْراضِ عَنْ أمْرِ اللهِ ؛ فَلَمْ يَتَأَتَّ لـ « ابْنِ يقظانَ » فَهْمُ ذٰلكَ ، وَبَقِيَ فى نَفْسِهِ تَعَلُّقٌ بما كانَ قَدْ أمَّلَهُ .

٤ — على ساحلِ البَحْرِ

ثُمَّ طَمِعَ « أسالُ » أنْ يَهْدِيَ اللهُ عَلَى يَدَيِ « ابنِ يَقْظانَ » طائفَةً مِنْ مَعارِفِهِ الْمُرِيدينَ ، الَّذينَ كانوا أقْرَبَ إلَى الإخْلاصِ مِنْ سِواهُمْ . فساعَدَهُ عَلَى

رأْيِهِ ، وَأَقَرَّهُ عَلَى اقْتِراحِهِ ، ودَعا اللهَ أَنْ يُحَقِّقَ أَمَلَهُ ، ويُظَفِّرَهُ بِأُمْنِيَّتِهِ .

وَرَأَيا أَنْ يَلْتَزِما ساحِلَ الْبَحْرِ ، وَلا يُفارِقاهُ لَيْلًا وَلا نَهارًا ؛ لَعَلَّ اللهَ يُسَنِّي (يُيَسِّرُ وَيُسَهِّلُ) لَهُما عُبُورَ الْبَحْرِ . فالْتَزَما ذٰلِكَ ، وابْتَهَلا إِلى اللهِ — تعالى — بِالدُّعاءِ أَنْ يُهَيِّئَ لَهُما مِنْ أَمْرِهِما رَشَدًا .

٥ — فِي الْمَرْكَبِ

وَكانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ — عَزَّ وَجَلَّ — أَنَّ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ ضَلَّتْ مَسْلَكَها ، وَدَفَعَتْها الرِّياحُ ، وَتَلاطُمُ الْأَمْواجِ ، إِلى ساحِلِ جَزِيرَتِهِما . فَلَمَّا قَرُبَتْ هٰذِهِ السَّفِينَةُ مِنَ الْبَرِّ ، رَأَى أَهْلُها « أَسالَ » و « ابْنَ يَقْظانَ » عَلَى الشَّاطِئِ ؛ فَدَنَوْا مِنْهُما . فَكَلَّمَهُمْ « أَسالُ » ، وَسَأَلَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُما مَعَهُمْ ؛ فَأَجابُوهُما إِلى ذٰلِكَ ، وأَدْخَلُوهُما السَّفِينَةَ . فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رِيحًا رُخاءً (خَفِيفَةً هَيِّنَةً لَيِّنَةً) ، حَمَلَتِ السَّفِينَةَ — فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ — إِلى الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَصَداها .

٦ — سَوادُ الْخاصَّةِ

فَنَزَلا بِها ، وَدَخَلا مَدِينَتَها . واجْتَمَعَ أَصْحابُ « أَسالَ » بِهِ ، فَعَرَّفَهُمْ شَأْنَ « حَيِّ بْنِ يَقْظانَ » ؛ فاشْتَمَلوا عَلَيْهِ اشْتِمالًا شَدِيدًا ، والْتَفُّوا حَوْلَهُ ، وَأَحاطُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَأَكْبَرُوا أَمْرَهُ ، واجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، وَأَعْظَمُوهُ وَبَجَّلُوهُ .

وَأعْلَمَهُ « أسالُ » أنَّ تِلْكَ الطَّائِفَةَ : هُمْ سَوادُ الخاصَّةِ مِنْ عُقَلاءِ الْجَزِيرَةِ ، وأنَّهُمْ — لذلكَ — أقْرَبُ إلى الفَهْمِ والذَّكاءِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ ، وأنَّهُ — إنْ



عَجَزَ عَنْ تَعْلِيمِ هؤُلاءِ الْخاصَّةِ الْعُقَلاءِ — فَهُوَ عَنْ تَعْلِيمِ الْجُمْهُورِ أعْجَزُ .

وكانَ رَأْسُ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ وكَبِيرُها : « سَلامانَ » ؛ وهُوَ صاحِبُ « أسالَ » الَّذِى ذَكَرْناهُ آنِفاً .

وَكانَ — كَما أسْلَفْنا — يَرَى مُلازَمَةَ الْجَماعَةِ ، ويَنْفِرُ مِنَ الْعُزْلَةِ .

٧ — السُّخْطُ بَعْدَ الرِّضا

فشَرَعَ «ابْنُ يَقْظانَ» فِي تَعْلِيمِ جَمْهَرَةِ النَّاسِ وإِرْشادِهِمْ، وبَثِّ أَسْرارِ الحِكْمَةِ فِيهِمْ. ثُمَّ تَرَقَّى بِهِمْ قَلِيلًا، وشَرَعَ فِي نَشْرِ آرائِهِ ومَبادِئِهِ الْجَدِيدَةِ بَيْنَهُمْ، فاجْتَرَأَ عَلَى مُصارَحَتِهِمْ بِالْحَقِّ، وتَوَخَّى (قَصَدَ وتَعَمَّدَ وتَطَلَّبَ) إِرْشادَهُمْ إِلى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وهِدايَتَهُمْ إِلى الصِّراطِ الْمُسْتَقِيمِ، وتَحْذِيرَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْبِدَعِ (الْأَشْياءِ الْمُسْتَحْدَثَةِ) الْمَمْقُوتَةِ الَّتِي أَلْصَقَها الْجُهَلاءُ بِالدِّينِ؛ فَشَوَّهَتْ مِنْ جَمالِهِ، وبَدَّلَتْ مِنْ مَحاسِنِهِ ومَزاياهُ. وما هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْدَمَ عَلَى ذٰلِكَ، حَتَّى جَعَلُوا يَنْفَضُّونَ عَنْهُ، وتَشْمَئِزُّ نُفُوسُهُمْ مِمَّا يَأْتِي بِهِ، ويَتَسَخَّطُونَ (يَغْضَبُونَ ويَكْرَهُونَ) — فِي قُلُوبِهِمْ — وإِنْ أَظْهَرُوا لَهُ الرِّضا فِي وَجْهِهِ؛ إِكْرامًا لِغُرْبَتِهِ فِيهِمْ، ومُراعاةً لِحَقِّ صاحِبِهِمْ «أَسالَ».

٨ — خَيْبَةُ «ابْنِ يَقْظانَ»

عَلَى أَنَّ «حَيَّ بْنَ يَقْظانَ» لَمْ يَدِبَّ الْيَأْسُ (لَمْ يَمْشِ) إِلى قَلْبِهِ، بادِئَ الْأَمْرِ. وما زالَ يَتَلَطَّفُ لَهُمْ لَيْلًا ونَهارًا، ويُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ سِرًّا وجِهارًا؛ فَلا يَزِيدُهُمْ ذٰلِكَ إِلَّا نُفُورًا وإِصْرارًا، ولا يَلْقَى مِنْهُمْ — عَلَى نَصِيحَتِهِ — إِلَّا

عُتُوًّا واسْتِكْبارًا . مَعَ أَنَّهُمْ كانُوا مُحِبِّينَ فِي الْخَيْرِ ، راغِبينَ فى الْحَقِّ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ كانُوا — لِنَقْصِ فِطْرَتِهِمْ ، وضِيقِ عَقْلِهِمْ ، وقِصَرِ نَظَرِهِمْ — لا يَطْلُبُونَ الْحَقَّ مِنْ طَرِيقِهِ ، ولا يَأْخُذونَهُ بِجِهَةِ تَحْقِيقِهِ ، ولا يَلْتَمِسُونَهُ مِنْ بابِهِ ، ولا يُرِيدونَ مَعْرِفَتَهُ مِنْ طَرِيقِ أَرْبابِهِ . فَلَمَّا رَأَى « ابْنُ يَقْظانَ » — مِن عِنادِهِمْ وإِصْرارِهِمْ — ما رَأَى — يَئِسَ مِنْ إِصْلاحِهِمْ ، وانْقَطَعَ رَجاؤُهُ مِنْ صَلاحِهِمْ ، لِقِلَّةِ قَبُولِهِمْ .

٩ — ضَلالُ النَّاسِ

وتَصَفَّحَ « ابْنُ يَقْظانَ » (تَعَرَّفَ وتَأَمَّلَ) — بَعْدَ ذٰلك — طَبَقاتِ النَّاسِ ؛ فَوَجَدَ من اخْتِلافِ آرائِهِمْ ، وتَعَدُّدِ مَذاهِبِهِمْ ، وَوَلُوعِهِمْ بالْجَدَلِ الْعَقِيمِ والْمُناقَشاتِ الَّتى لا تُثْمِرُ ، ما زَهَّدَهُ فى لِقائِهِمْ . وزادَ يَأْسُهُ مِنْ هِدايَتِهِمْ ، إِذْ رَأَى أَنَّ كُلَّ حِزْبٍ — بِما لَدَيْهِمْ — فَرِحُونَ ، ورَأَى مِنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الآخِرَةِ ، وتَفانِيهِمْ فِى جَمْعِ حُطامِ الدُّنْيا الْفانِيَةِ (جَمْعِ ما فِيها مِنَ الْأَمْوالِ) ما حَيَّرَهُ ، وبَلْبَلَ خاطِرَهُ . فَقَدْ أَلْهاهُمُ ٱلتَّكاثُرُ ، حتَّى زارُوا الْمَقابِرَ . ولَمْ تَنْجَعْ (لَمْ تُجْدِ ولَمْ تَنْفَعْ) فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ ، ولَمْ تَعْمَلْ فِيهِمُ الْكَلِمَةُ ٱلطَّيِّبَةُ ، ولَمْ يَزْدادُوا — بالْجِدالِ — إِلَّا إِصْرارًا وعِنادًا . ولَمْ تَجِدِ

الْحِكْمَةُ إلى قُلُوبِهِمْ سَبِيلًا ، بَعْدَ أَنْ غَمَرَتْهُمُ الْجَهالةُ ، ورانَ (غَلَبَ واشْتَدَّ) عَلَى قُلوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ؛ وَجَعَلَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعلى سَمْعِهِمْ وعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةً (غِطاء) ، ولَهُمْ عَذابٌ عظيمٌ .

١٠ — ظُلُماتُ الجهلِ

فَلَمَّا رَأَى « ابْنُ يَقْظانَ » أَنَّ سُرادِقَ الْعَذابِ (دُخانَهُ) قد أَحاط بِهِمْ ، وَظُلُماتِ الْحُجُبِ قدْ تَغَشَّتْهُمْ (غَطَّتْهُمْ) ، وَأَنَّ جَمِيعَهُمْ — إِلَّا الْيَسِيرَ — لا يتَمَسَّكُونَ مِن دِينِهِمْ إِلَّا بالدُّنْيا ، وَقد نَبَذُوا أَحْكامَهُ وَسُنَنَهُ ، وَتركُوها — عَلَى خِفَّتِها وَسُهولتِها — وراءَ ظُهورِهِمْ ، واشْتَرَوْا بِها ثَمَناً قليلًا ، وَأَلْهاهُمْ — عَنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى — بَيْعُهُمْ وتِجارَتُهُمْ، وَلَمْ يَخافُوا يَوْماً تتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأبْصارُ : بانَ له (تحَقَّقَ) — عَلَى القَطْعِ — أنَّ مُخاطبَتَهُمْ لا غَناءَ فيها (لا جَدْوَى وَلا فائِدَةَ) ، وأَنَّ تَقْوِيمَ اعْوِجاجِهِمْ لا يَتَّفِقُ ، وَأَنَّ حَظَّ أَكْثَرِ الْجُمْهورِ — مِنَ الانْتِفاعِ بالشَّرِيعةِ — إِنَّما هُوَ فى حَياتِهِمُ الدُّنيا ؛ لِيَسْتَقِيمَ لَهُمْ مَعاشُهُمْ ، وَلا يَتعَدَّى أحدٌ مِنهم عَلَى سِواهُ فِيما اخْتُصَّ بِهِ .

١١ — طَرِيقُ النَّجاةِ وطَرِيقُ الهلاكِ

وَرَأَى « ابْنُ يَقْظانَ » أنَّ الْفائِزِينَ بالسَّعادَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ أقلُّ مِنَ الْقَليلِ ،

وأنَّهُ لا يَظفَرُ بها إلَّا الشّاذُّ النّادِرُ ؛ وهو مَنْ أرادَ حَرْثَ الآخِرَةِ (العَمَلَ لها) ، وسَعَى لَها سَعْيَها . وأمّا مَنْ طَغَى ، وآثَرَ الحَياةَ الدُّنْيا ؛ فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى . وَأَيُّ تَعَبٍ أدْهَى وأعظمُ ، وشَقاوَةٍ أطَمُّ (أكْثَرُ وأغْلبُ) وأعَمُّ وأكْبَرُ ، مِمَّنْ إذا تَصَفَّحْتَ أعمالَهُ طولَ يَوْمِهِ — مِنْ وقتِ انْتِباهِهِ من نَوْمِهِ ، إلى حينِ رُجُوعِهِ إلى الكَرَى ، واسْتِسْلامِهِ لِلنَّوْمِ — لا تَرَى لهُ هَمًّا يَشْغَلُ بالَهُ ، ويُؤَرِّقُ نَوْمَهُ ، إلَّا أغْراضَ الحَياةِ الزّائِلَةِ : مِنْ مالٍ يَجْمَعُهُ أوْ دُنْيا يُصيبُها ، أوْ لَذَّةٍ ينالُها ، أوْ كَيْدٍ يَتَشَفَّى بِهِ ، أوْ جاهٍ يُحْرِزُهُ ، أوْعَمَلٍ مِنْ أعمالِ الشَّرْعِ يَتزَيَّنُ بِهِ ، أوْ تَقْوَى يَتظاهَرُ بها رِئاءَ النّاسِ (تَظاهُرًا بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ) . وهِيَ كلُّها ظُلُماتٌ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ (عَظِيمِ المَوْجِ) بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ .

١٢ — خاتِمَةُ القِصَّةِ

فَلَمّا فَهِمَ « ابْنُ يَقْظانَ » أحْوالَ النّاسِ ، أدْرَكَ أنَّ أكْثَرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الحَيَوانِ غيرِ النّاطِقِ ، وَأَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ رِجالًا ، وأنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ . فانْصَرَفَ « ابْنُ يَقظان » إلى « سَلامانَ » وأصْحابِهِ ؛ فاعْتَذَرَ لَهُمْ عَمّا تَكَلَّمَ به مَعهُمْ ، وأعْلَمَهُمْ أنَّه قَدْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِمْ ، واهْتَدَى بِمِثْلِ هَدْيِهِمْ ، وأوْصاهُمْ بالخَيْرِ والبِرِّ ، والاقْتِداءِ بالسَّلَفِ الصّالِحِ .

ثُمَّ ودَّعَهُمُ « ابْنُ يَقظانَ » و « أسالُ » ، وتَلَطَّفا فى العَوْدَةِ إلى

جَزِيرَتِهِما ، حتَّى يَسَّرَ اللهُ — عَزَّ وجَلَّ — لَهُما العُبورَ .

وطَلَبَ « حَيُّ بْنُ يَقظانَ » مُقامَهُ الكَريمَ ، عَلَى النَّحْوِ الَّذِى طَلَبَهُ أَوَّلًا ؛ حتَّى عادَ إِلَيْهِ . واقْتَدَى بِهِ « أَسالُ » . حتَّى ساواهُ أَوْ كادَ .



وَما زالا يَعْبُدانِ اللهَ فى تِلْكَ الْجَزيرةِ ، حتَّى أَتاهُما الْيَقِينُ (الْمَوْتُ) .

وهٰكَذا عاشا عِيشَةَ النُّسَّاكِ الزَّاهِدِينَ ، وماتا مِيتَةَ الْأَبْرارِ الْمُقَرَّبِينَ ، وكُتِبَتْ لَهُما السَّعادَةُ فى الدُّنيا والْآخِرَةِ ؟

المقدمة

نشـأة المؤلف

مؤلف هذه القصة الخالدة ، هو : « أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد ابن طفيل » الأندلسى . وهو ينتسب إلى « قرطبة » و « أشبيلية » . ويدعى تارة بـ « القرطبي » ، وتارة بـ « الأشبيلى » ، ويعزى إلى قبيلة « قيس » المشهورة .

وكانت ولادته فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى . وقد اشتغل بالطب فى « غرناطة » ، ثم أصبح ناموسا لحاكم هذه المقاطعة . وما لبث أن ذاع صيته فى الآفاق وعرف فضله بين أفذاذ معاصريه ، وأصبح علماً من الأعلام بعد أن اتصل بـ « أبى يعقوب » عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) ، وصار أصفى أصفيائه ، وأخلص سماره وندمائه .

وصف « أبى يعقوب » وثقافته

أما « أبو يعقوب » هذا فهو « يوسف بن عبد المؤمن » ، وقد أسس أبوه دولة الموحدين ، ثم خلفه ولده « أبو يعقوب » على « سبتة » و « طنجة » ، واتخذ « ابن طفيل » كاتم سره وأنيسه وطبيبه ، ولم يخالف له رأياً ، ولم يرد له مشورة .

وكان « أبو يعقوب » هذا مثال الوالى المثقف الناصح ، وقد اختار حاشيته وأصفياءه من أعيان المفكرين فى عصره .

قال « المراكشى » يصف « أبا يعقوب » :

« وكان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، فى صوته جهارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، فى الجاهلية والإسلام .

وصرف عنايته إلى ذلك ؛ أيام كونه بـ « أشبيلية » والياً عليها فى حياة أبيه . ولقى رجالا من علماء اللغة والنحو والقرآن . »

وكان « أبو يعقوب » – كما يقول المراكشى – « شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخيًّا ، جواداً ، استغنى الناس فى أيامه ، وكثرت فى أيديهم الأموال . هذا مع إيثار للعلم ، وتعطش إليه مفرط . »

قال : « وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى علم اللغة ، وتبحر فى علم النحو . ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى . » إلى أن قال : « ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء – وبخاصة أهل علم النظر – إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب . »

فضل « ابن طفيل »

قال « المراكشى » :

« وكان ممن صحبه من العلماء « أبو بكر محمد بن طفيل » أحد فلاسفة المسلمين . كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة ، قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة . ورأيت لـ « أبى بكر » هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك . فمن رسائله الطبيعية رسالة سماها : رسالة « حى بن يقظان » . غرضه فيها بيان مبدأ النوع

الإنسانى على المذهب الذى يراه ، وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن . ومن تصانيفه فى الإلهيات : رسالة فى النفس ، رأيتها بخطه رحمه الله ، وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهى ونبذ ما سواه . وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظماً لأمر النبوات ظاهرًا وباطناً . هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية .

وكان أمير المؤمنين « أبو يعقوب » : شديد الشغف به والحب له . بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياماً ، ليلا ونهاراً ، لا يظهر ، وكان « أبو بكر » هذا أحد حسنات الدهر ذاته وأدواته . »

مثالان من شعره

وقد اختار « المراكشى » من شعر « ابن طفيل » قوله فى الزهد :

« يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن .
نور تردد فى طين إلى أجل ... فانحاز علواً وخلى الطين للكفن .
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا ، ... أظنها هدنة كانت على دخن .
إن لم يكن فى رضا الله اجتماعهما ، ... فيا لها صفقة تمت على غبن . »

وقوله :

« ما كل من شم ّ نال َ رائحة ، ... للناس فى ذا تباين عجب .
قوم لهم فكرة تجول بهم ... بين المعانى ، أولئك النجب .
وفرقة فى القشور قد وقفوا ... وليس يدرون لبّ ما طلبوا .
لا غاية تنجلى لناظرهم ... منه ولا ينقضى لهم أرب .
لا يتعدى امرؤ جبلته ... قد قسمت — فى الطبيعة — الرتب . »

« ابن طفيل » و « ابن رشد »

وكان لـ « ابن طفيل » الفضل فى تقديم « ابن رشد » إلى السلطان « أبى يعقوب » . وقد وصف ذلك « المراكشى » فقال :

« ولم يزل « أبو بكر » هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبّه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم . وهو الذى نبهه على « أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد » ، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم .

وكان « أبو الوليد » يقول غير مرة : « لما دخلت على أمير المؤمنين « أبى يعقوب » وجدته هو و « أبو بكر بن طفيل » ليس معهما غيرهما . فأخذ « أبو بكر » يثنى علىّ ويذكر بيتى وسلفى ، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين — بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى— أن قال لى : « ما رأيهم فى السماء — يعنى الفلاسفة — أقديمة هى أم حادثة ؟ » فأدركنى الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدرى ما قرر معه « ابن طفيل » . ففهم أمير المؤمنين منى الورع والحياء ، فالتفت إلى « ابن طفيل » وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله « أرسطوطاليس » و « أفلاطون » وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن ، المتفرغين له ، ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك . فلما انصرفت ، أمر لى بمال وخلعة سنية ومركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استدعانى « أبو بكر بن طفيل » يوماً فقال لى : « سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة « أرسطوطاليس » أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : « لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً ، ليقرب مأخذها على الناس . » فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به ، لما أعلمه من جودة

ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة ، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه . » قال أبوالوليد :

« فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم « أرسطوطاليس » . »

وقد رأيت لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة ، ترجمه بكتاب الجوامع . لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والمحسوس . ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء .

وبالجملة لم يكن في بني عبد المؤمن — من تقدم منهم وتأخر — ملك بالحقيقة غير « أبي يعقوب » هذا . »

وفاة « ابن طفيل »

وهكذا قضى « ابن طفيل » حياة مباركة حافلة بالدرس والتأليف ، ولم يأل جهده في تشجيع أعلام عصره وتقديمهم إلى السلطان ، وقد رأى القارئ أثر « ابن طفيل » في تشجيع « ابن رشد » والأخذ بناصره ، وقد دارت بينهما مراسلات نفيسة في مراجعة كتاب « الكليّات » الذي ألّفه « ابن رشد » .

وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب « طبقات الأطباء » لـ « ابن أبي أصيبعة » (ص ٧٨) ما يلي :

« ولابن رشد مقالة أيضاً في اتصال العقل بالإنسان : مراجعات ومباحث بينه وبين أبي بكر بن طفيل . »

ومات « ابن طفيل » عام ٥٨١ هـ . (١١٨٥ — ١١٨٦ م) بمراكش ، واحتفل معاصروه بتشييع جنازته ، ومشى فيها السلطان ، وفاز بالحسنيين ، وظفر بما لم يظفر به

إلا القلائل ، فقد قدره أهل عصره — كما قدرته العصور التالية — حق قدره .

أما مؤلفاته الأخرى فلسنا نعرف عنها إلا رسالتين فى الطب ، على أن قصة « حى بن يقظان » كافية وحدها فى نباهة شأنه ، وخلود ذكره على مر الأزمان وتعاقب العصور .

أثره فى عالم القصة

أما أثر « ابن طفيل » الذى أحدثه بعد موته فى عالم القصة فهو أثر عميق شامل ، يكاد يعجز المنصف عن شرحه وتبيانه ، وهو أوسع مجالا وأقوى تأثراً مما يتصوره الباحث.

ولو أغفلنا فلسفة « ابن طفيل » كلها ، وبراعته الفذة فى تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الإنسانية ، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة ، ثم لو نظرنا إلى أثر قصته فى القصص العالمى ؛ لهالنا الأمر وتعاظمتنا الدهشة . فإن « حى بن يقظان » قد أرضعته ظبية — كما رأى قارئ هذه القصة الخالدة — فلم يجد صاحب قصة « سيف بن ذى يزن » أمامه إلا اقتباس هذه الفكرة فى مستهل تلك السيرة المعجبة ، وسار على غرار « ابن طفيل » فاختار لـ « سيف بن ذى يزن » — بطل قصته — ظبية ترضعه ، ثم ارتقى المؤلف من الظبية إلى جنية تعطف عليه فترضعه ، فيكتسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم .

وقد أوحت هذه الفكرة إلى مؤلف « طرزان » أن يختار لبطل قصته قردة يعيش معها ويحاكى أفعالها .

فلما جاء « دانيل ديفو » القاص الإنجليزى المشهور اقتفى أثر « ابن طفيل » وسار على منهاجه فى تأليف قصة « روبنسن كروزو » الذى عاش وحده فى جزيرة نائية مقفرة ، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقاً يسعده فى آخر مقامه بالجزيرة وهو « جمعة » ؛ كما اختار « ابن طفيل » « أسال » رفيق « ابن يقظان » الذى التقى به فى المرحلة الأخيرة من القصة .

وقد قرأنا ما يعزز رأينا فى المقدمة الرائعة التى صدر بها « ليون جوتييه » طبعته الأنيقة لقصة « حى بن يقظان » إذ يقول :

وإن قارئ هذه القصة « حي بن يقظان » ليرى فيها روح « ألف ليلة » قد اتخذت أسلوباً فلسفياً صوفياً عالياً فى كثير من مواقفها المعجبة ، كما يرى فيها — إلى ذلك — أصل « روبنسن كروزو » التى كتبت على غرارها ، ولم يفت مؤلفها أن يقتبس شخصية « جمعة » .

ولا بأس أن نقتبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة ، لنطلع القارئ على رأى أوروبى ناضج فى خطر هذه القصة العربية الفذة ، قال « جوتييه » :

« وإن القارئ ليدهش إذ يرى تعاليم « أرسطو » مبثوثة فى أثناء هذه القصة ، وقد امتزجت بألوان بارعة من الصوفية العالية ، والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية ، فى أسلوب عصرى حقيق بالإكبار .

وقد أبدع المؤلف فى أمثلته التى عرض بها إلى دقائق التشريح ، وتحليل التربة والمناخ ، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية ، والرموز البارعة التى عبر بها عن دقائق ما وراء الطبيعة ، فلم يدع مجالا لغير الإعجاب بها ، والإكبار لفن مؤلفها وبراعة أسلوبه الجامع ، وإبداعه فى تجلية غوامض الفلسفة وتدرجها ونمائها ، واتجاهاتها المختلفة ، وجمع أطرافها ، ولمّ أشتاتها المبعثرة ، فى نسق علمى أخّاذ ، يتجلّى للقارئ فى ذلك القصص الطبيعى الجذاب . »

أثر قصة « روبنس »

على أن قصة « روبنسن » التى وضعها مؤلفها على غرار « ابن يقظان » قد أوحت إلى كثير من القصاصين أن يحاكوها ، ويسيروا على نهجها ، وقد أشرنا إلى ذلك فى مقدمة تلك القصة . فلنجتزئ منها بما يلى :

« وفى عام ١٧١٩ م ، شرع « ذيفو » فى تأليف القسم الأول من « روبنسن كروزو » وكان — حينئذ — قد قارب الستين من عمره .

وسار على نهجه كثير من الكتاب ، ولم ينجح – من بينهم – غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو الأسرة السويسرية الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة فى جامعة « برن » ، وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق ، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة يسودها الوئام والحب ، فتتغلب على العقبات والمتاعب . »

« ابن يقظان » و « جلفر »

ولو شئنا أن نتقصى أثر هذه القصة العربية التى أبدعها « ابن طفيل » فى روائع القصاصين ، لامتدّ بنا نفس القول ، واحتجنا إلى رسالة مستفيضة ، فلنجتزئ بالإشارة السريعة إلى أثر قصاصنا « ابن طفيل » فى الكاتب العبقرى « سويفت » مؤلف « جلفر » التى ترجمناها منذ أعوام ، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦م فى مدينة « لندن » ، فأحدثت دوياً هائلا وآثاراً بعيدة المدى .

وإن القارئ الباحث ليدهشه ما يراه فى قصة « جلفر » من وجوه الشبه ، حتى ليجزم بأن « سويفت » كان يسبح فى كثير من الأجواء التى سبح فيها « ابن طفيل » ؛ فإذا نظرنا إلى تلك المحادثات المستفيضة التى دارت بين « جلفر » وبين العمالقة – فى الجزء الثانى – وبين « جلفر » والجياد الناطقة – فى الجزء الرابع – وهى محاورات تدل على سخط صاحبها على الجنس الإنسانى ونقمته من ضلالهم وأفانين غرورهم ، وفتنتهم بالأحجار الكريمة وما إلى ذلك ؛ رأينا تبسيطاً وشرحاً لنقمة « ابن يقظان » وسخطه على ضلال الجنس الإنسانى .

وإذا نظرنا إلى فطنة « ابن طفيل » إلى أهدى أسلوب فى تعلم لغة أجنبية وهو الأسلوب المباشر – وهو فيما نعلم أول من كشف لنا الستار عنه – وجدنا « سويفت » يلجأ فى قصته إلى تقرير هذا الأسلوب نفسه فى تعلم « جلفر » لغات الأقزام والعمالقة ، وسكان الجزيرة الطيارة ، والجياد الناطقة .

انظر إلى قول « ابن طفيل » :

« ثم سمع « ابن يقظان » صوتاً حسناً ، وحروفاً منظمة لم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان . »

وانظر إلى قول « سويفت » على لسان « جلفر » :

« ثم دار بين الجوادين حوار طويل، هو أقرب إلى أن يكون حوار فيلسوفين يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة لا عهد لهما برؤيتها من قبل . »

وانظر إلى دهشة « جلفر » من لغة الأقزام والعمالقة وسكان الجزيرة الطيارة، فإنك واجد ما يحقق هذا الرأى ، ويقنعك بصدق ما ذهبنا إليه .

أما مشكلة الثياب ، فقد ظهر فيها توخى « سويفت » نهج « ابن طفيل » ظهوراً بيّناً . فقد نظر إلى قول « ابن طفيل » :

« ونظر « ابن يقظان » إلى أشكال « أسال » وتخطيطه ، فرآه على صورته ، وتبين له أن الثياب التى عليه ليست جلداً طبيعياً، وإنّما هى لباس متخذ مثل لباسه هو . . . إلخ » ، فاتخذ « سويفت » من هذه اللفتة البارعة نواة لقصته فى بلاد العمالقة ، كما استفاض فى تبسيط هذه الفكرة وتحليلها فى قصة « جلفر » مع الجياد الناطقة، فهو يقول فى الأولى :

« وما رآنى العملاق حتى دهش ، وأخذ قشة صغيرة من الأرض — فى حجم العصا التى نتوكأ عليها فى بلادنا — ورفع بها أطراف ثوبى ، وهو يحسبه غطاء وهبتنيه الطبيعة — كما تهب الطيور الريش — ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح ، ثم نادى خدمه وقال لهم — فيما فهمت من دهشته وإشاراته — : « إنه لم ير حيواناً يشبهنى فى حقوله . . . إلخ . »

وقد شغلت مسألة الثياب هذه أرحب مكان فى نفس « سويفت » فلم يكتف بتقريرها فى هذا الموضع من كتابه ، بل عاد إليها حين عرض لحوار الجوادين الناطقين ، وتناولها فى هذه المرة مسهباً مستفيضاً فى شرحها وتحليلها ، فقال :

« وأحاط بى هذان الجوادان ، وأجالا أبصارهما فىّ ، وظلا يطيلان التأمل فى وجهى ويدى زمناً يسيراً .

ودنا منى أحد الجوادين -- وهو الأزرق المرقش -- فرفع رجليه الأماميتين إلى قبعتى وعبث بها ؛ فنزعتها من فورى، ودهش الجواد الآخر -- وهو الجواد الأحمر -- حين أمسك بذيل ثوبى ، فرآه غير ملتصق بجسدى .»

إلى أن قال :

« وظل السادة الجياد حائرين فى أمرى ، وهم يحسبون أن ثيابى ليست إلا جزءاً طبيعيًّا من جسمى . ثم افتضح السر للسيد الجواد بعد ذلك ؛ فقد وقع لى حادث -- لم يكن فى حسبانى -- اضطرنى إلى الإفضاء إليه بحقيقة أمرى . »

طبعات القصة وترجماتها

ولو أن هذه القصة قد كتب لها أن تبقى فى اللغة العربية وحدها ، لعددنا ذلك من توارد الخواطر ، ووقع الحافر على الحافر ، كما يقولون . ولكنها ترجمت إلى أكثر لغات العالم . فترجمها « بوكوك » -- وهو من رجال الكنيسة -- إلى اللاتينية ، ثم نقلها « أشويل » إلى اللغة الإنجليزية .

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية عام ١٦٧١ م أول مرة فى « أوكش » ، ثم طبعت مرة أخرى فى « أكسفورد » عام ١٧٠٠ م . أما ترجمة « جبو أشويل » فقد طبعها فى السابع والعشرين من يناير عام ١٦٨٦ م فى « لندن » .

وقد طبعت رسالة « حى بن يقظان » بالقاهرة والقسطنطينية عام ١٢٥٥ هـ . ثم طبعها « ليون جوتييه » بالجزائر عام ١٩٠٠ م ، كما طبعت فى « سرقسطة » فى نفس العام . وترجمها إلى الإنجليزية -- عدا « أشويل » -- كاتب يسمى « سيمون أوكلى » ، وطبعت فى « لندن » وترجمت إلى الهولندية عام ١٦٧٢ م ، وأعيد طبعها فى «نوتردام» عام ١٧٠١ م . ونقلها -- عن نسخة « بوكوك » اللاتينية -- إلى الألمانية « بريتوس » ، وظهرت فى « فرانكفورت » عام ١٧٢٦ م .

ثم ظهرت ترجمات ألمانية أخرى عام١٧٨٣م بأقلام «إيشهورون» و«مونك داوبرج» ، وظهرت ترجمة إسبانية بقلم « فرنسيسكوبوجى » .

وظهرت لها ثلاث طبعات فى مصر : إحداها بمطبعة الوطن ، وثانيتها بمطبعة وادى النيل ، وثالثتها بالمطبعة الخيرية .

وقد ترجمت هذه القصة إلى العبرية ، وكتب عن مؤلفها كاتب إسبانى اسمه « بونس براج » رسالة عنوانها : « ابن طفيل — حياته وآثاره » . وقد طبعها عام ١٩٠٠م ، ونوّه « بروكلمان » بهذه الرسالة فى « تاريخ الآداب العربية » .

وهناك قصة فارسية عنوانها : « سلامان وأسال » ، ألفها « جامى » الفيلسوف الفارسى بوحى من قصة « ابن طفيل » التى ترمز إلى اشتباك العقل الإنسانى بعالم المحسوسات . وقد ترجمت القصة الفارسية إلى الفرنسية ، وطبعت فى باريس عام ١٩١١م .

ولو شئنا أن نتقصى هذه الترجمات لطال بنا الكلام ، فلنجتزئ بهذا القدر .

ترجمة « أشويل »

على أننا نكتفى بالإشارة إلى ترجمة « أشويل » التى نقلها عن اللاتينية ، وأشار فيها إلى مترجمها « بوكوك » الذى كان له الفضل الأول فى نقلها إلى اللاتينية ، وقد وضع لها عنوان : « أسرار الحكمة الشرقية » . ثم جاء « أشويل » ، فأطلق عليها عنوان : « الأمير الهندى » ، أو « الفيلسوف الذى فلسف نفسه » . وطبع على غلافها ما يلى :

« كتب هذه القصة « أبو بكر بن طفيل » الفيلسوف المسلم المعروف . وقد أوضح فى أثنائها الخطوات والمدارج التى يرتقى العقل الإنسانى فى معارجها ، وكيف تهدى دقة الملاحظة والفطنة والمرانة إلى تلك النتائج العلمية ، وتصل بصاحبها إلى أبواب المعارف الطبيعية ، وتكشف له قوى الطبيعة العالية ، ولا سيما آثار القوة الإلهية ، وما يتعلق بالعوالم الدنيوية الأخرى . »

(انتهت القصة الأولى)

القصة الثانية : « ابن جبير فى مصر والحجاز »

مكتبة الكيلانى للأطفال

الأستاذ الكبير

كامل الكيلانى

مطالع بلا حساب . وحافظ بلا حساب . ومثمر بلا حساب . أقول : « بلا حساب » وأعنى : الكثرة المباركة ، أعنى : الغيث استدر على تربة خصبة فيحاء ، فأنبتت من كل جانب أحاسن النبات ، أعنى : النيل استنزل من عالى الشعاب وبعيدها ؛ فأحيا من الرمال الموات ، وأخرج المروج والجنات .

تسمعه فتسقى من فيض علمه ولا تروى ، وتقرأ له فتطعم من جنى حلمه ولا تشبع . على أن تلك الذخائر التى جمعها صدره فأوعى ، قد غذت منه قريحة ولوداً ، لم يأت غيرها بأنجب ولداً ، ولا بأكثر عدداً .

* * *

من العلماء من يختزن ولا ينفع بعلمه . ومن الأدباء من يجيد اللفظ ويبرع فى الأسلوب ، ولكنه إنما يخرج من الدر ، ويصوغ من القلائد ، ما يتابع به العادات ، ولا يعدو الإعادات . أما المنشآت الصادرة عن مقدرة واختراع ، فقلّ من يحاولها ، لأن دونها عناء بقدر خطرها .

* * *

لا كذلك الأستاذ الكيلانى ؛ فقد نظر فى حاجات عصره — وحاجات العصر حوله جمة — فبعد أن ترجم ما ترجم من قصص أكابر الأدباء الغربيين ، ودرس ما شاء من مخلفات المتقدمين من العرب — ترسلا كانت أو شعراً أو حكمة — وراض ملكته أوفى

الرياضات، نظمًا ونثرًا، هدته فطرته الإنسانية الرقيقة إلى مجال يستطيع أن يجرى فيه قلمه نظمًا ونثرًا؛ فيحدث للأمة العربية حدثًا جديداً، يكفل تنشئة أبنائها على حالة من الثقافة لتدرجة، توصلهم إلى الغاية التى يدركها أبناء الأجانب. وقد كونت أذهانهم بمثل الطريقة السهلة المشوقة البارعة التى وضعها لهم جهابذة التربية عندهم.

* * *

عنى بتغذية عقول الأطفال، وتهذيب أخلاق الأطفال، وتقويم ملكات الأطفال على العربية الصحيحة. فألف واقتبس لهم قصصاً – بين صغيرة وكبيرة – نيفت كراريسها وكتبها على الأربعين، ودارجهم بما هيأه لهم فيها من أسباب الإنارة والإرشاد – من حداثتهم الأولى إلى اقتبال الصبا، بل إلى شرخ الشباب – فأتى فى سرده بكل شيء مفيد، وممتع قيم. وقد ترى فى كلامه السهل الممتنع، فلا تتبين – من الفور – قدر ما بذله من الجهد فيه. ولكنك إذا انتقلت – مثلا – إلى ما عربه ولخصه وقربه من أضخم مسرحيات «شكسبير»، وبدا لك من تجديده لتلك القصص على نحو خاص، ما جمع فيه – من الفصاحة فى المبانى، إلى البلاغة فى المعانى؛ ومن الجزالة فى الشعر، إلى السهولة فى النثر – بدا لك، بجملته وتفصيله، صنيع هذا الرجل فى أروع صورة تجلو فطنه المبدعة، وكفاياته المتنوعة.

* * *

ولو لم يكن للأستاذ الكيلانى إلا أنه مبتكر فى وضع مكتبة الأطفال بلسان الناطقين بالضاد، لكفاه فخرًا بما قدمه لرفع ذكره، وما أحسن به إلى قومه وعصره.

خليل مطران

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٢٤٢٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3183 – 5 ISBN

١ / ٩٠ / ٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)